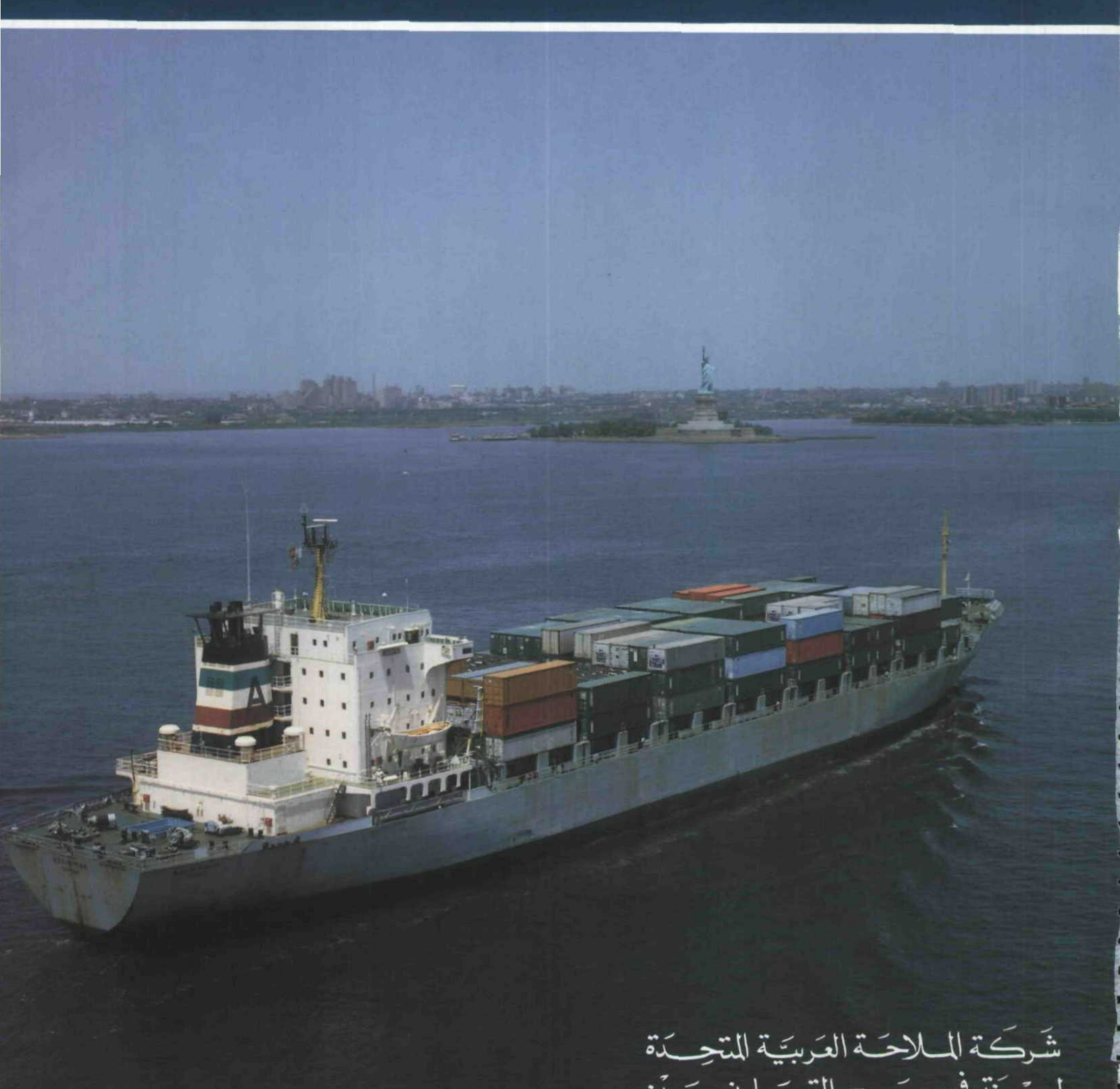
القافلة

جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ/ فبراير ١٩٨٧م



شركة الملاحة العربية المتحدة
لبنة في صرح التعاون بين
دول الخليج العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN FEB. 1987

جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ/ فبراير ١٩٨٧م

العدد السادس/المجلد الخامس والثلاثون

تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً


شركة الملاحة العربية المتحدة ..


كنوز أثرية نفيسة في أرض الرافدين


دعوة لانقاذ ناطحات السحاب في شيبام

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في "القافلة" يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- يجوز اعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.

العنوان

صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية

طباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
Printed by Al-Mutawa Press Co., Dammam, Saudi Arabia

منهج ابن تيمية في التفسير

بقلم: د. أحمد جمال العمري / جدة

هو احمد بن عبدالحليم بن تيمية، شيخ الاسلام، وأحد الأئمة الأعلام[1].
ولد في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ بحرّان، وقد جمع الله له كل العوامل التي جعلت منه رجلا بارزا، فريدا في عصره في الفقه، وسائر العلوم الاسلامية، من وراثة طيبة قوية، وبيئة صالحة تزخر بالعلم، وتدفع اليه دفعا، وعقل واع ألمعي، وحافظة ذاكرة لا تنسى ما وعته، وشجاعة تستهين بالأخطار في سبيل الحق، وارادة لا تقف أمامها العقبات، وغير ذلك كله من أسباب العبقرية والنجاح والنبوغ.

في دمشق، إحدى مدائن العلوم الكبيرة في ذلك الزمان، نشأ أحمد وترعرع، ثم درس ونضج، حتى بلغ أشده، وأتاه الله العلم والحكمة، وصار أحد الأئمة الأعلام، ومن كبار شيوخ الاسلام، الذين خلدت اعمالهم على الزمن، بفضل ما قاموا به من جلائل الأعمال، وما خلفوه لنا من عظيم الآثار.

يذكر ابن الوردي في تاريخه[2] انه بعد أن تعلم الخط والحساب، وحفظ القرآن، أقبل على الفقه والعربية، وبرع في النحو، ثم أقبل على التفسير إقبالا كليا حتى سبق فيه، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وقوة حافظته وادراكه.

تقول المصادر: انه كان يحضر المحفل في صغره، فيناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحيرون منه، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف، وبعد صيته في العالم، فطبق ذكره الآفاق، وأخذ في تفسير القرآن أيام الجمع في المسجد من حفظه، لا يتوقف ولا يتلعثم.

وكان لابن تيمية خبرة بالرجال رواة الحديث، وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث الصحيح والضعيف، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به. وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، واليه المنتهى في عزوه الى الكتب، السنة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: ان كل حديث لا يعرفه ابن تيمية، فليس بحديث.

ويقول ابن الوردي أيضا — عن علمه بالتفسير: «وأما التفسير، فمسلم اليه، وله في استحضار الآيات للاستدلال بها قوة عجيبة، ولفرط امامته في التفسير، وعظمة اطلاعه، بيَّن خطأ كثير من أقوال المفسرين. وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الاصلين — أي أصول الفقه وأصول الدين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحوا من أربع كراريس.

قال: وما يبعد ان تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة.

تراثه العلمي

تناول ابن تيمية علوم عصره بالدرس الواسع العميق، ثم بالتأليف بعد أن أحاط بها خبرا، وردّ على مخالفيه، وبخاصة علماء الكلام والمنطق والتصوف والفلسفة، برسائل لطيفة أحيانا، وبكتب مطولة أحيانا أخرى، وكانت نتيجة ذلك كله أن ترك عددا ضخما من المؤلفات، يقول أكثر من ترجموا له أنها تصل الى خمسمائة، منها:

- رسالة الفرقان بين الحق والباطل.
- التبيان في نزول القرآن.
- العقيدة الواسطية.
- الاكليل في المتشابه والتأويل.
- رسالة في القضاء والقدر.
- رسالة في درجات اليقين.
- تفسير المعوذتين.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
- رفع الملام عن الأئمة الاعلام.
- الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح.
- تفسير سورة النور.
- اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم.
- رسالة في سجود القرآن.
- الفتاوى.
- جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار.

وقد تُوفي — رحمة الله عليه — سنة ٧٢٨ للهجرة.

منهجه في التفسير

ينهج ابن تيمية في تفسيره، وفروع علمه، منهجا خاصا، آمن به، والتزمه في كل ما كتب وصدر عنه، في كل رأي ذهب اليه.

الاعتماد على الكتاب والسنة

انه يعتمد على كتاب الله، وما صح عنده من أحاديث الرسول وسنته، ثم على آراء الصحابة، على أنه قد يحتج أحيانا بأقوال التابعين، والآثار التي رويت عنهم، مستأنسا بها، وبخاصة في الجدل والمناظرة. وذلك بأن القرآن قد تضمن الشريعة التي أمرنا

---

(١) انظر في ترجمته: تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٧٩/٤، وتاريخ ابن الوردي ٢٨٧/٢، الطبقات لابن رجب ٤٠٣/٢، فوات الوفيات ٥٤/١ — ٨٥ — دائرة المعارف الاسلامية (ابن تيمية)

(٢) ج ٢ ص٢٨٦.

باتباعها – في أصول الدين، وفي فروعه واحكامه العلمية المعروفة بالفقه، وفي غير هذا وذاك كله من الآداب والأخلاق – أحيانا في اجمال، وأحيانا في تفصيل، ثم بيَّن الرسول ذلك كله، وأخذ الصحابة رضي الله عنهم بيانه وتفسيره، وعنهم أخذ التابعون باحسان.

ونجد هذا العنصر الأول من عناصر منهجه واضحا في كل كتبه ورسائله، ومن هذه الرسائل رسالة، عنوانها: «معارج الوصول الى معرفة أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول».

وقد افتتح هذه الرسالة بقوله: فصل في أن رسول الله، ﷺ، بيَّن الدين، أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فان هذا الأصل هو أصل العلم والايمان، وكل من كان أعظم اعتصاما بهذا الأصل كان أولى بالحق علما وعملا.

ويزيد الأمر بيانا وتفصيلا فيقول: وأما العمليات، وما تسميه أناس الفروع، والشرع والفقه، فهذا قد بيَّنه الرسول أحسن بيان، فما من شيء مما أمر الله به، أو نهى عنه، أو حلله أو حرمه، الا بيَّن ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ وقال سبحانه: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾.

وقال عز وجل: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله، ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب**﴾. وقال تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردُّوه الى الله والرسول**﴾، أي الى كتاب الله أو الى سنة رسوله.

ولا يخالف ابن تيمية في أن الاجماع والقياس من أصول الفقه، ولكنه يردُّهما الى كتاب الله، وسنة رسوله، اللذين هما الأصل في كل حال، ولهذا نراه يقول في الرسالة نفسها:

«والمقصود هنا أن الرسول بيَّن جميع الدين بالكتاب والسنة، وأن الاجماع، إجماع الأمة حق، فإنها لا تجتمع على ضلالة، وكذلك القياس الصحيح، حق يوافق الكتاب والسنة.

وهكذا نجد ابن تيمية يرد الاجماع الى الكتاب والسنة، وكذلك الأمر في القياس، إذ يذكر أن القياس الصحيح هو ما وافق الكتاب والسنة.

اعتماده على العقل في مجاله

وما ينبغي لنا أن نظن أن ابن تيمية يهمل العقل وتفكيره، حين يجعل الكتاب والسنة وآثار الصحابة ومن اليهم سنده الأول في بحوثه وآرائه، بل مستنده الوحيد بعبارة أدق. فإن فهم كتاب الله وسنة رسوله فهما عميقا حقا، يحتاج بلا ريب الى قلب واع، وعقل مفكر نافذ. ولكنه كان يعرف للعقل قيمته ومجاله، الذي يصول فيه ويجول. فلا يجاوز به هذا المجال، ولا يرتفع به عن قدره.

ولكن معرفة هذا المجال هي المشكلة التي شغلت الفلاسفة والمفكرين في كل عصر، وبخاصة مفكري الاسلام، ورجال الفلسفة فيه.. فان منهم من آمن بالعقل ونظره إيمانا راسخا، ووثق به ثقة مطلقة، فكان هذا السبب ضلال بعضهم الى حد كبير، حين ظنوا أنهم بعقولهم وحدها قادرون على معرفة عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا.

إن القرآن دعا حقا الى وجوب ملاحظة ما خلق الله من عوالم مختلفة، والى إعمال العقل فيها، وذلك ليصل الانسان الى الايمان بإله واحد خلق ذلك كله، ولذلك نجد آيات كثيرة تختم بهذه الجمل وأمثالها التي لها دلالتها: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ و﴿**لعلكم تذكَّرون**﴾ و﴿**لعلكم تهتدون**﴾ و﴿**لقوم يتفكرون**﴾. وكان من تنبيه القرآن — باشتماله على هذا الضرب من الآيات وأمثالها — العقل الى التفكير للوصول الى الايمان بالله الخالق العلي الحكيم، أن ظهر في البيئة الاسلامية: كتب العقل لداود بن المحبَّر وأمثاله. وروى أصحاب هذه الكتب احاديث عن الرسول ﷺ تشيد بالعقل الى أكبر الحدود، وتجعل له الأثر البالغ في كل شيء.

ويذكر ابن تيمية، حين سئل رأيه في هذا الحديث: «**أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزَّتي ما خلقت أكرم عليَّ منك، فبك آخذ، وبك أعطي، وبك الثواب والعقاب**».

حين سئل ابن تيمية عن هذا الحديث قال: هذا الحديث باللفظ المذكور قد رواه من صنَّف في فضل العقل، كداود بن المحبَّر ونحوه، ثم يذكر رأيه في الحديث، فيقول: واتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ضعيف بل موضوع، ثم ينقل عن الحفَّاظ أن الأحاديث المروية عن الرسول في «العقل» لا أصل لشيء منها، وبخاصة والمراد بالعقل فيها هو العقل الانساني، كما يزعم الذين رووها[3].

والسؤال الآن: هل كان من عناصر منهجه في البحث تأويل ما لا يتفق ونظر العقل من النصوص؟

لم تعرض مشكلة تأويل نصوص القرآن والحديث لابن تيمية، وإنما هو الذي رأى ضروريا أن يعرض لها، وذلك حتى يدفع عن النصوص المقدسة عادية «المؤولين» الذين أسرفوا في التأويل لتشهد هذه النصوص لما ذهبوا اليه من آراء، فقد كانوا يعتقدون ثم يستدلون، أما هو — فكان يستدل أولا، ثم يعتقد ثانيا ما أداه اليه الدليل النصي.

إنه يرى أولا ان يفرق بين التأويل في عرف السلف، وبينه عند المتكلمين، وبخاصة عند المعتزلة منهم، والفلاسفة والمتصوفة الاسلاميين. فالتأويل عند رجال السلف، هو التفسير، وبيان المراد من النص القرآني او الحديثي، وبهذا المعنى ورد كثير في القرآن نفسه، وهو التاويل المقبول، ومن ثم يقال ان الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، كانوا على علم بتأويل القرآن، الذي فهموه وفسروه كله، وفي هذا يقول الحسن البصري — من التابعين: «ما أنزل الله آية الا وهو يحب ان يعلم ما أراد بها».

وأما النوع الآخر من التأويل، الذي قال به كثير من الفلاسفة المسلمين والمتصوفة ورجال علم الكلام. فهو أمر آخر غير النوع الأول. والتأويل في اصطلاحهم الخاص — كما يذكر ابن تيمية نفسه — «صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه، والمفهوم منه الى معنى آخر يخالف ذلك» أي صرف اللفظ عن معناه الظاهري الى معنى آخر خفي. ومع ذلك، فهذا ضرب من التأويل لم يغب عن الرسول، ﷺ. فانه نفسه بيَّن، في كل موضع يجب فيه ترك المعنى الظاهري، المعنى الآخر المراد بهذا اللفظ، وذلك لأنه لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبيِّنه لهم، ويدلهم عليه».. الى آخر ما قال.

وما دام الأمر كذلك، فلا تعارض بين المعقول الصريح، والمنقول الصحيح عن الرسول في رأي ابن تيمية. أي لا تعارض بين ما وصل اليه العقل السليم، وما ثبت نقله عن رسول الله بطريق صحيح لا ريب فيه.

هكذا يرى ابن تيمية، وهو يؤكد في مواضع كثيرة من كتبه، انه قد تحقق ذلك بنفسه، اذ تبين له بعد استقصاء وتفكير طويل، اتفاق ما جاء به السمع عن الرسول، ﷺ، مع ما وصل اليه العقل الصحيح النظر، وهو في هذا يقول:

المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة، يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع.

اننا نستطيع أن نقرر أن ابن تيمية لم ير أن هناك مشكلة تسمى مشكلة التأويل تتطلب حلا، ولم ير أن يقوم منهجه في البحث للوصول الى الحق على التأويل، الذي أمعن فيه غيره من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، وذلك لأن هذه المشكلة قد عرضت لهؤلاء من المسلمين، لما قام لديهم من وجود تعارض، بين ما جاء به الشرع، قرآنه وحديثه، وبين ما أدتهم اليه عقولهم، فقام منهجهم على تأويل ما لا يتفق ونظرهم العقلي من النصوص الدينية والوحيَّة.

عدم التعصب والجمود

لم يكن ابن تيمية بالرجل الذي يتبع غيره في رأي له، بغير بيِّنة او دليل، ولا بالذي يتعصب لرأي ويجمد عليه، وقد بان له

(٣) راجع «بغية المرتاد في الرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية» ص/٥، ٦، ٢٩، ٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٩هـ.

خطؤه، بل كان حرا في تفكيره في دائرة الكتاب والسنة، وما صح عن الصحابة من الآثار، غير متعصب الا للحق، وللحق وحده. خلع عن عنقه ربقة التقليد للغير، ولم يقيد نفسه إلا بالقرآن، وسنة الرسول، ﷺ، وآثار السلف الصالح، اذا تبين له صحة صدورها عنهم، وفي هذه المصادر الأولى للاسلام وشريعته، كان له جولات.

على كل هذا يجمع مؤرخوه، وبكل هذا تنطق رسائله وكتبه وآراؤه، التي تفرد بها، وهي غير قليلة، كما تنطق به حياته، وما لقي من سجون واعتقال مرات بسبب بعض هذه الآراء، حتى توفاه الله تعالى، وهو سجين بقلعة دمشق.

ويظهر لنا ما يتسم به منهج ابن تيمية من حرية الفكر، وعدم الجمود، من رأيه الذي ذهب اليه، وهو حرية المتعاقدين في الشروط التي يريانها ويرتضيانها فيما يعقدون من عقود، سواء في هذا عقود المعاوضات والزواج وغيرها.

انه يجيز كل شرط يرضى به المتعاقدان ما دام لا يناقض او يتعارض مع حكم الله ورسوله، ولا يستثني من هذا الأصل شيئا حتى في عقد الزواج. وهو يستدل لهذا بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾. وقول الرسول، ﷺ، «**المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا**». ثم يقول: «ان الاصل في العقود والشروط الجواز والصحة، ولا يحرم ويبطل منها الا ما دل على تحريمه أو بطلانه نص»(٤).

وخلاصة القول: ان عناصر منهج ابن تيمية في البحث والدراسة: الاعتماد على كتاب الله، وما صح عنده من أحاديث الرسول وسنته، وآثار السلف الصالح، ومعرفة قيمة العقل والانتفاع به غير مجاوز به قدره ومجاله، رحابة صدر وعدم تعصب وجمود.

فلننظر الآن كيف كان أمينا لهذا المنهج في التفسير..

قال الحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد: «قال الشيخ ابو عبدالله بن رشيق، وكان من أصحاب شيخنا (يقصد ابن تيمية) وأكثرهم كتابة لكلامه، وحرصا على جمعه: كتب الشيخ، رحمه الله، نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورا وآيات يفسرها، ويقول في بعضها: كتبته للتذكرة، ونحو ذلك.

ثم لما حبس في آخر عمره، كتبت له أن يكتب جميع القرآن تفسيرا، مرتبا على السور، فكتب يقول: «إن القرآن فيه ما هو بيِّن بنفسه، وفيه ما قد بيَّنه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الانسان عليها عدة كتب، ولا يتبيَّن له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيرا، ويفسر غيرها نظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره، واذا تبين معنى آية تبيَّن معاني نظائرها»(٥).

والذي نفهمه من كلام الرجل، أن ابن تيمية لم يحاول تفسير القرآن كله، وان كان قد فهمه جميعه طبعا، ولكن هذا الذي قام ببيان معانيه وتفسيره منه، وإن كان قليلا بالنسبة لمجموع القرآن، الا أنه كثير حقا في نفسه، ومنهجه واضح كل الوضوح فيه.

وسنقتصر هنا في بيان تطبيق منهجه العام في فهم القرآن وتفسيره، على الرجوع الى الرسالة التي كتبها هو نفسه في أصول التفسير، فإن فيها الكفاية في هذه الناحية.

يبدأ ابن تيمية رسالته ببيان مبلغ عناية الصحابة والتابعين بمعاني القرآن، والرسول بيَّن لهم هذه المعاني كما بلَّغهم ألفاظه ونصه الكريم، فإن قوله تعالى ﴿**وانزلنا اليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل اليهم**﴾ يتناول هذا وهذا.

وكانت طريقتهم في تعلم القرآن هي السبب في بلوغهم درجة معرفة معانيه، فقد قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان ابن عفان، وعبدالله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي، ﷺ، عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

إن الباحث المدقق في منهج ابن تيمية في فهم القرآن وتفسيره، يجد أنه يقوم على مجموعة من الأصول، وهذه الأصول هي:

- تفسير القرآن بالقرآن، وهي أحسن طرق التفسير وأعلاها مرتبة، فإن ما أجمل في مكان قد فسر وبين في موضع آخر، وما اختصر في مكان قد بسط في موضع آخر.
- فان أعياه ان يجد تفسيرا لبعض آيات القرآن في القرآن، فإنه يلجأ في تفسيره الى سنة رسول الله، ﷺ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وأنزلنا اليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل اليهم ولعلهم يتفكرون**﴾.

ولهذا قال الرسول، ﷺ، «**ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه**» يعني السنة.

- فان لم يجد تفسير ما يريد لا في القرآن ولا في السنة، كانت المرتبة الثالثة هي تفسيره بأقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، ومنهم عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس.

وابن مسعود، هو الذي يقول: «والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته(٦).»

وابن عباس: هو ابن عم رسول الله، ﷺ، وهو ترجمان القرآن ببركة دعاء الرسول له، اذ قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ويقول عنه ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

وبعد مرتبة تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة، أو بأقوال الصحابة، تجيء مرتبة تفسيره بأقوال التابعين، ان لم يجد لأحد من الصحابة قولا فيما يريد تفسيره من كتاب الله، مثل مجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وغيرهم من رجال العلم بكتاب الله ومعانيه، والذين استفادوا علمهم من الصحابة، رضي الله عنهم(٧).

الا أن الشيخ ابن تيمية يتكلم هنا بحذر شديد، ولا يرضى كل ما نسب الى التابعين من الأقوال في تفسير القرآن، وهو من أجل هذا يقول: اذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته في أقوال الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك الى أقوال التابعين كمجاهد، فانه كان آية في التفسير.

ثم يذكر أنه يجب أن يتفطن اللبيب لما أثر عنهم في هذا العلم، لأن أقوالهم ليست حجة في الفروع، فكيف تكون حجة في التفسير على غيرهم ممن خالفهم.

ويختم ابن تيمية كلامه هنا بهذه الكلمة الموجزة الجامعة:

«أما اذا اجتمعوا على الشيء (يقصد الرأي) فلا يرتاب في كونه حجة، فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك الى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة».

تلك هي الأصول التي قام عليها منهج ابن تيمية في التفسير، ومنها يتضح أن الرجل سلفي تماما في التفسير، كما هو الشأن في سائر العلوم التي اشتغل بها، وهو اذن لا يرى تفسير كتاب الله بالرأي، الذي لا يسنده حديث أو قول مأثور، ولذلك نجده يقول: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام».

ولم يصل الينا كل ما كتبه ابن تيمية في التفسير، ولكن لدينا منه تفسير سورة النور، ثم تفسير بعض قصار المفصل، وقد تكلم في تفسيرها بإفاضة، وجاء في أثنائها بآيات كثيرة من غيرها وفسرها، كما تعرض فيها لكثير من المسائل والعقائد، بأوفى بيان □

---

(٤) انظر رسالة العقود — طبع أنصار السنة بالقاهرة سنة ١٩٤٩م ص٢١١ وما بعدها.

(٥) انظر العقود الدرية، ص ٢٧ و ٢٨.

(٦) ابن جرير الطبري — تفسيره ٨٠/١ طبع دار المعارف بمصر.

(٧) انظر رسالته في التفسير ص/٤٧ — ٥٠.

شركة الملاحة العربية المتحدة لبنة في صرح التعاون بين دول الخليج العربية





الاستاذ عبدالعزيز حسين صلات، مدير عام الشركة، يتحدث الى كاتب السطور عن نشاطات الشركة.

مقر الشركة وفروعها

يقع مقر الشركة الرئيسي في دولة الكويت ولها فروع في جميع الدول المساهمة، مهمتها توفير خدمة مثلى للشاحنين يمكن الاعتماد عليها في مجالات الشحن والمناولة. ولها مكاتب في كل من الأردن والمملكة المتحدة واليابان والولايات المتحدة الامريكية، فضلا عن وكلاء عديدين منتشرين في مختلف مناطق العالم. ومهمة هذه المكاتب تسهيل عملية الاتصال التجاري بين المصدرين والشاحنين في الخارج وبين المستوردين في منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر.

وأثناء جولتنا في مقر الشركة بالكويت، التقينا عددا من المسؤولين منهم الأستاذ عبدالعزيز حسين صلات مدير عام الشركة الذي أوجز لنا نشاط واعمال الشركات التابعة لشركة الملاحة العربية المتحدة قائلا: «ان احدى مزايا الخدمة التي توفرها الشركة لزبائنها تتمثل في كونها متكاملة تبدأ منذ تسلمها حتى تسليمها، وتتضمن تجهيز جميع الوثائق والمستندات المطلوبة والقيام بأعمال الشحن البري والجوي اذا تطلب الأمر ذلك. وتقوم الشركات التابعة لشركة الملاحة العربية المتحدة بمساعدتها على اتمام كل ذلك بنجاح تام، وهذه الشركات هي:

الشركة العربية المتحدة لاستئجار وتأجير السفن

وهي واحدة من الشركات التي تمتلكها شركة وكالات الملاحة الكويتية، وشركة دالاس ومقرها في لندن، ولها مكتب في الكويت. ومهمة هذه الشركة اضافة الى ايجار واستئجار السفن لشركة الملاحة العربية المتحدة، القيام بخدمات متعددة لصالح التاجر في الخليج وتوفير متطلباته من السفن المستأجرة لنقل جميع أنواع الحمولات من والى الخليج العربي والبحر الأحمر.

ونظرا للموقع الحيوي للشركة في اسواق الشحن الدولية، وسمعتها المرموقة وعلاقاتها الوطيدة مع شركات الشحن، استطاعت ان ترتب نقل حمولات كبيرة من الحبوب الى العراق ونقل خامات الحديد والصلب من البرازيل الى المملكة العربية السعودية، وكرات الحديد من البحرين الى دول أخرى عديدة.

شركة وكالات الملاحة الكويتية

يتلخص عمل هذه الشركة ما بين الاشراف على تفريغ البضائع وايداعها في الموانيء وبين التنسيق مع المستوردين ومساعدتهم في تسلم بضائعهم أو نقلها الى مستودعاتهم، كما تتولى هذه الشركة متابعة واصدار الوثائق اللازمة لجميع البواخر التي تمتلكها شركة الملاحة العربية المتحدة والبواخر الأخرى التي قد تستأجرها. بالاضافة الى قيامها بتمثيل مالك الباخرة امام المستورد وكذلك تلبية متطلبات البواخر كافة في جميع المجالات وتأمين احتياجات السفن وبحارتها قبيل رسوها في الموانيء وبعد ابحارها. ولهذه الشركة فروع في الكويت، ودبي، وابو ظبي، في الخليج العربي، وميناء العقبة في البحر الأحمر. وقد حققت هذه الشركة من خلال سرعة اداء اعمالها، اختصار فترات بقاء السفن في الموانيء، وسرعة ابحارها الى موانيء أخرى، وهذا بدوره ادى الى مردود واضح على نتائج رحلات السفن.

الشركة العربية للنقل

تعرف هذه الشركة باسم «ارا ترانس»، ومهمتها الاساسية توصيل البضائع برا من اوربا الى منطقة الشرق الاوسط وبالعكس، وكذلك نقل البضائع بين مختلف مناطق العالم اعتمادا على النقل البري والبحري. اضافة الى نقل البضائع جوا عبر مختلف مناطق العالم، من خلال استئجار طائرات كاملة أو جزء منها حسب نوعية البضائع وحجمها وحاجة كل من المصدرين والمستوردين. كما تتولى الشركة معاينة البضائع للتأكد من أنها مطابقة للمواصفات المطلوبة، والاشراف على سلامة التحميل، وتقديم المشورة الفنية والقانونية.

شركة الشرق الأوسط لاصلاح الحاويات

بدأت أعمال هذه الشركة في الأول من يوليه عام ١٩٨١م وكانت بداياتها متواضعة جدا، ثم أخذت تتطور تدريجيا.

وفي منتصف عام ١٩٨٤ اشترت شركة الملاحة العربية المتحدة ٤٩٪ من أسهم هذه الشركة، وبقيت ٥١٪ من اسهمها بأيدي الشركاء الأصليين، وعن العلاقة بين شركة الملاحة العربية المتحدة وشركة الشرق الاوسط لاصلاح الحاويات يقول مديرها العام انها لا تتعدى تقديم الخدمات التي يحصل عليها أي زبون. والمتمثلة في الصيانة والتنظيف والصبغ والمعاينة، ثم يتطرق الى أنواع الحاويات فيقول: «الحاويات، كما هو معروف، انواع عديدة منها ذات الاستعمال العام، وذات السقف المفتوح وحاويات التعبئة الجانبية. والحاويات المسطحة والحاويات الصهريج، والحاويات المبردة وحاويات الكعب المرتفع».

وبطبيعة الحال فان بعض هذه الحاويات تتعرض لبعض التلف نتيجة التحميل والتفريغ في الموانيء ومن هنا لا بد من اجراء صيانة لها لرفع الاجزاء التالفة وابدالها باجزاء جديدة، وكذلك بالنسبة للحاويات المبردة التي تتطلب ضبط درجات برودة معينة طوال مدة الرحلة، أي منذ تحميل البضائع حتى تسليمها كي تصل الى وجهتها النهائية وهي في أفضل وضع. وتقوم الشركة عادة بصيانة ومعاينة الف حاوية شهريا، وقد تختلف المدة التي تقضيها الحاوية في الورشة حسب نوعية الصيانة التي تستلزمها.

فالحاوية كما هو معروف، على شكل صندوق، يتكون من أربعة اركان اساسية، وثماني سكك جانبية، وهذه تحدد شكل الحاوية وحجمها، اضافة الى الالواح الجانبية التي تستند على السكك والأعمدة. وأكثر هذه الأجزاء عرضة للتلف هي القاعدة والأعمدة الجانبية، لكونها تتعرض للثقل الواقع عليها من قبل حمولة الحاوية والحاويات الأخرى.



الناقلة «ابن الابآر» وهي تمخر عباب الخليج العربي.

منذ فجر التاريخ، والبحر يلعب دورا حيويا في حياة الناس وله تأثيره الفعال على نشاطهم ومن المعروف ان الحضارات التي نشأت على ضفاف الأنهار مثل مصر والعراق، والهند كانت تدين للتجارة البحرية بالكثير من تطورها.

فعلى سبيل المثال، دلت الحفريات على وجود نظام نقل بحري دولي في الخليج العربي يعود الى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد تركزت التجارة في جزيرة البحرين التي تقع في منتصف الطريق بين العراق ومدخل الخليج العربي، حيث كانت السفن القادمة من مدينة أور، المدينة السومرية القديمة التي ولد فيها ابراهيم الخليل، عليه السلام، تلتقي بالسفن القادمة من الهند في اطار التبادل التجاري.

أما في حضارة وادي النيل، فان دلائل النقل النهري تبدو فيها واضحة جلية، فقد كانت السفن المصرية تمخر عباب النيل من الشمال الى الجنوب وبالعكس. ولم تقتصر تجارة المصريين القدماء على النيل فقط بل امتدت شرقا نحو شواطىء البحر الأبيض المتوسط وخاصة باتجاه بلاد الفينيقيين، وجنوبا عن طريق البحر الأحمر باتجاه اليمن والصومال واذا تقدمنا خلال الفترة الممتدة بين منتصف الالف الثاني ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد وجدنا أن الفينيقيين، الذين عاشوا بين جبال لبنان وسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية، هم أعظم أمة بحرية في العالم، فقد أولوا التجارة البحرية جل اهتمامهم، حتى تمكنوا بسفنهم من الابحار بين شواطىء البحر الأبيض المتوسط واقاموا مستعمرات لهم في قبرص وصقلية، وسردينيا، وتونس، واسبانيا. كما كان لهم قصب السبق في اكتشاف طرق ملاحية جديدة، ووضع أسس الملاحة البحرية بمراقبة النجوم والشمس. وفي نهاية القرن الثاني الميلادي تطور النقل البحري حتى وصل بين شواطىء البحر الأبيض المتوسط وشواطىء المحيط الاطلسي الشرقية، وبين شواطىء الخليج العربي وشواطىء الهند. وقد قامت بين هذين الخطين عدد من الخطوط البرية، أشبه ما تكون بالوصلات، ونشأت من جراء ذلك ارتباطات تجارية برية وبحرية، كان لها أثرها الكبير على تطور التجارة وازدهارها وفي اكتشاف ومعرفة اتجاهات الرياح والاستفادة منها في تسيير السفن في عرض البحار خلال رحلة الذهاب والاياب.

وقد ظلت خطوط الملاحة التقليدية هي السائدة لفترة طويلة من الزمن حتى نهاية القرن الخامس عشر حيث تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح خلال الرحلة التي قام بها «فاسكو دي جاما» والتي انطلقت من لشبونه في البرتغال في ٨ يوليو ١٤٩٧م ووصلت الى ميناء كلكتا في الهند في ٢٣ مايو ١٤٩٨م وقد أدى اكتشاف هذا الطريق الى تطور كبير في التجارة البحرية.

كما أدى استخدام السفن التجارية في مطلع القرن الثامن عشر الى تطورات مذهلة في النقل البحري سواء كان في حجم السفن او سرعتها أو في سهولة الملاحة ويسرها. ومن ذلك على سبيل المثال الرحلة الشهيرة التي قامت بها السفينة التجارية «سافاناه» في عام ١٨١٩م من جورجيا بالولايات المتحدة الامريكية الى ايرلندا، وقد قطعت المحيط الاطلسي في ٢٩ يوما و١١ ساعة.

ورغم أن السفن التجارية أخذت تمخر عباب المحيط الاطلسي فان أول خط ملاحي منتظم هو ذلك الخط الذي افتتحته السفينة «جريت وسترن» في عام ١٨٣٨م حيث استغرقت رحلتها بين بريطانيا وامريكا ١٥ يوما.

وقد حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى تطور آخر على النقل البحري تمثل في التحول من الفحم الى البترول كمصدر للطاقة في تشغيل السفن.

وبعد هذا الاستعراض المقتضب عن تاريخ الملاحة في العالم بشكل عام ننتقل الى الحديث عن شركة الملاحة العربية المتحدة، التي تشكل نموذجا حيا للتعاون القائم بين دول الخليج العربية.

ان انشاء شركة الملاحة العربية المتحدة هو حصيلة تطور العلاقات الاقتصادية بين دول مجلس التعاون الخليجي نحو التكامل الاقتصادي وقد فرضت تلك التطورات على هذه الدول الاتجاه نحو التضامن بمختلف اشكاله كمحاولة منها للتغلب على المشاكل الاقتصادية التي تواجهها من جهة ورغبة منها في حل تلك المشاكل بصورة جماعية من جهة أخرى، بالاضافة الى القيام بمشاريع مشتركة توفر لها قدرات مالية وكفايات ادارية لا تتاح لها بصورة منفردة. وليس غريبا ان تجتمع ست دول عربية مطلة على الخليج هي العراق والكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة، لانشاء هذه الشركة برأس مال قدره ٥٠٠ مليون دينار كويتي في الأول من شهر يوليو عام ١٩٧٦م. وقد كانت ولادة هذه الشركة تجسيدا لرغبة تلك الدول في توثيق الروابط الاقتصادية فيما بينها والعمل على تنمية مواردها.

وقد جاء في اتفاقية التأسيس ان الغرض من انشاء هذه الشركة، هو القيام لحسابها أو لحساب الآخرين بجميع عمليات الملاحة والنقل البحري، وبجميع العمليات التي ترتبط بأي سبب كان بالملاحة والنقل البحري. وكذلك اعتبار هذه الشركة هي الشركة الوطنية لكل دولة امام الاتحادات الملاحية الدولية على الخطوط التي تسيرها الشركة الى موانيء الخليج، ولكل دولة عضو، الاحتفاظ بشركة أو شركات وطنية لا يزيد مجموع حمولتها على مائة وعشرين الف طن. ويتولى مجلس ادارة شركة الملاحة العربية المتحدة تنسيق المسائل المتعلقة بالتمثيل في اتحادات الملاحة الدولية.

* * *

١ ــ المستر جون بدنكفيلد، مدير شركة الشرق الاوسط لاصلاح الحاويات.

٢ ــ جهاز التشكيل، في الشركة، حيث يستعان به للحصول على القطع المختلفة من اجزاء الحاوية.

٣ ــ بعض أعمال التنظيف الروتينية التي تجريها الشركة على الحاويات.

٤ ــ عاملان يقومان بصيانة احدى الحاويات ذات السقف المفتوح.

٥ ــ فني لحام يؤدي بعض أعمال الصيانة.

٦ ــ احد العاملين في الشركة يقوم بمعاينة حاوية لتحديد نوعية الصيانة.

٧ ــ احدى رافعات شركة الشرق الاوسط تؤدي عملها بالقرب من ورشة الاصلاح التابعة للشركة.

١



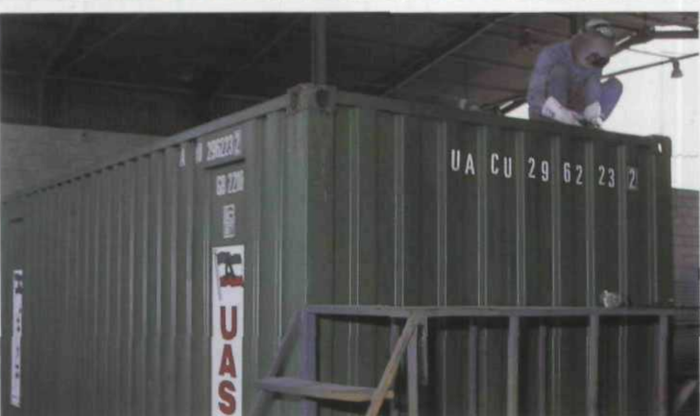
٣



٢



٥



٤

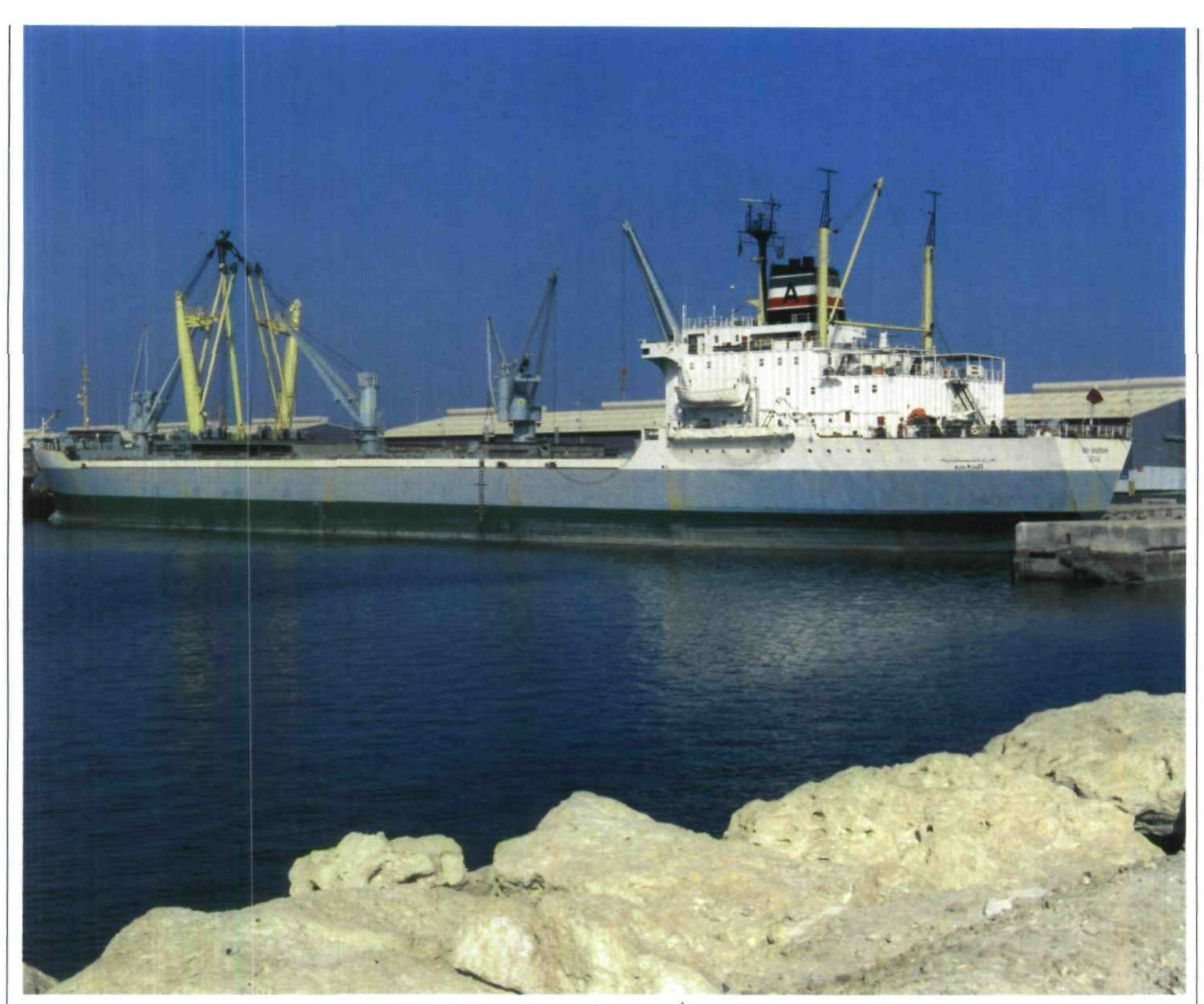


٧



٦





الناقلة «ابن بسام» أثناء رسوها في ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام.

شركة وكالات الملاحة العربية المتحدة

وهذه الشركة، كما يقول مديرها العام الاستاذ محمد فايز العارضي، عبارة عن مشروع مشترك بين شركة الملاحة العربية المتحدة ومجموعة يوسف بن احمد كانو. وهي بمثابة وكيل شحن بحري، ومن مهامها القيام بكافة الانشطة المتعلقة بالشحن البحري في المملكة العربية السعودية لحساب شركة الملاحة العربية المتحدة وغيرها من الشركات كما تتولى الاشراف التام على الخدمات التشغيلية المقدمة لسفن شركة الملاحة العربية المتحدة في موانيء المملكة.

وأضاف الاستاذ محمد العارضي قائلا.. نحن نعتمد على جهاز قدير وفعال من المسوقين الذين يقومون بالاتصال مع التجار ويعرضون خدماتنا عليهم ويعرفونهم بالمزايا التي توفرها الشركة لهم فيما يخص الشحن وما يتبعه من عمليات أخرى مكملة مثل التخزين والنقل البري. فالشركة لا تكتفي بمجرد نقل الحمولات من ميناء الى آخر، بل انها توفر على أصحاب البضائع الكثير من الوقت والمال، اذ ان الشركة مستعدة لنقل حمولاتهم وتوصيلها من منشأها الى أي مكان يرغبون فيه. فالخدمات التي تقدمها الشركة هي متداخلة ومتكاملة.

وحول الاتصال والتنسيق وتبادل المعلومات بين شركة وكالات الملاحة العربية المتحدة وشركة الملاحة العربية المتحدة، وهذا يتم بالأجهزة المعروفة مثل الهاتف والتلكس والفاكسميلي، ويقول الاستاذ العارضي «ان هذه الاتصالات مهمة وضرورية لتبادل المعلومات المختلفة بين الطرفين من أجل تحقيق خدمات أفضل.

أما عن دور شركة الملاحة العربية المتحدة في تنشيط الحركة التجارية في منطقة الخليج فيقول الاستاذ محمد العارضي: انها لعبت دورا فاعلا من خلال خطوطها الكثيرة التي تنطلق من مختلف مناطق العالم لتصب في الخليج العربي والبحر الأحمر ونتيجة لذلك فقد انتعشت تجارة النقل البحري في المنطقة، وباتت في متناول الجميع.

الخطوط الملاحية

تتألف شركة الملاحة العربية المتحدة من اسطول ضخم يضم ستين سفينة، منها أربعون مخصصة لنقل الحمولات العامة حيث تبلغ حمولة كل واحدة منها ٢٣٨٠٠، وثلاث أخرى حمولة كل منها ١٣٥٠٠ طن. وهناك ست عشرة سفينة مخصصة لنقل الحاويات، منها ثلاث سفن طاقة الواحدة منها ٨٠٠ حاوية نمطية، وأربع أخرى طاقة الواحدة منها ١١٦٠ حاوية نمطية، وتسع سفن طاقة كل منها ١٨٤٦ حاوية نمطية، وهناك ناقلة أخرى جديدة لنقل البتروكيمياويات تبلغ طاقتها ٤١٥٠٠ طن. ومعظم تلك السفن مجهزة برافعات حديثة ذات القدرة العالية على أعمال التحميل والتفريغ. وجميع سفن الشركة

الكابتن مضر سالم علوان، مدير الاسطول.

تتوفر فيها مواصفات المنظمة البحرية الدولية كما أن الشركة تختار طاقم تلك السفن من أصحاب الكفايات والخبرات لضمان سيرها من ناحية والحفاظ على الحمولات التي على ظهرها من ناحية أخرى، كما يقول القبطان مضر سالم علوان مدير الاسطول، الذي بدوره يؤكد على حرص الشركة دائما على الارتقاء بطاقم السفينة الى مستوى رفيع يتناسب والخدمة التي تقدمها الشركة. اما الخطوط الملاحية التي تسير عليها سفن الشركة فهي:

خط أوربا
أولاً: خدمة الحاويات

تمكنت شركة الملاحة العربية المتحدة من تطوير تجارة الحاويات بين اوربا والخليج العربي خلال السنوات القليلة الماضية من عمر الشركة، فهي تمتلك تسع سفن حاويات عاملة على هذا الخط اضافة الى خمسة وعشرين الف حاوية نمطية من مختلف الأنواع، وهناك رحلة كل ستة أيام من موانيء اوربا الى الخليج العربي. وبهذا تفوقت على الشركات الملاحية العاملة في المنطقة، وأصبحت واحدة من مصادر نقل الحاويات على هذا الخط. هذا ما قاله الاستاذ حامد ذو الفقار عبدالرحمن، نائب المدير العام للخطوط الملاحية.

ثانيًا: خدمة الحمولات العامة

وفي هذا المجال تسير الشركة حوالي اربع رحلات شهريا من موانيء بريطانيا وشمال اوربا. اضافة الى



حامد ذو الفقار عبدالرحمن، نائب المدير لخطوط الملاحة.

بعض الرحلات المنتظمة من موانيء البحر الأبيض المتوسط، ويضيف الاستاذ حامد ذو الفقار الى أن الشركة على استعداد تام لنقل حمولات المشاريع والبضائع العامة، كما يمكنها تقديم جداول زمنية معينة للرحلات حسب ما تحتاجه المشاريع، وهي مستعدة لتسيير رحلات الى أي ميناء اذا كان ذلك مجزيا.

خط أمريكا الشمالية

يربط هذا الخط السواحل الشرقية للولايات المتحدة الامريكية وخليج المكسيك بالشرق الأوسط، ويعمل على هذا الخط عدد من سفن الحاويات، التي يبلغ سعة كل منها ١١٦٠ حاوية نمطية، من موانيء «هيوستن» و«نورفولك» و«بالتيمور» و«نيويورك» الى جدة ودبي والدمام والكويت، بواقع رحلتين شهريا.

ويتطرق السيد حامد ذو الفقار عبدالرحمن الى الحمولات التي مصدرها الساحل الغربي للولايات المتحدة الامريكية فيقول: انها تنقل برا الى هيوستن حيث تشحن على سفن الشركة، وكذلك بالنسبة للحمولات من «تورنتو» و«مونتريال» في كندا فانها تنقل عن طريق ميناء نيويورك، وهذا النظام يسري على عدد كبير من الحمولات في الولايات المتحدة الامريكية حيث تنقل الى احد الموانيء الخمسة السابقة، التي تؤمها سفن شركة الملاحة العربية المتحدة، ثم تأخذ طريقها الى الشرق الاوسط. اما مدة الرحلة فتستغرق عادة من نيويورك الى جدة ستة عشر يوما، والى دبي اثنين وعشرين يوما، والى الدمام اربعة وعشرين يوما، والى الكويت خمسة وعشرين يوما.

وعلاوة على ذلك، فان للشركة رحلتين لسفن الحاويات شهريا من الموانيء الغربية للبحر الأبيض المتوسط مثل «جنوا» و«ليجهورن» و«مارسيليا» و«فالنسيا» الى السواحل الشرقية لامريكا الشمالية،



الناقلة «الدرعية»، احدى الناقلات الضخمة التي تبلغ حمولتها ١١٦٠ حاوية نمطية، أثناء اقترابها من شواطىء نيويورك.

ومنها تنقل الحمولات الى وجهتها الرئيسية. فحمولات «تورنتو» و«مونتريال» تشحن برا عن طريق نيويورك، اما حمولات الساحل الغربي للولايات المتحدة الامريكية فيتم ترحيلها عن طريق هيوستن.

أما الحاويات المتجهة من بومباي في الهند الى امريكا فانها تشحن أولا الى موانيء الخليج العربي أو البحر الأحمر ومنها الى الولايات المتحدة الامريكية. وجدير بالذكر أن شركة «كير ستيم شب» هي الوكيل العام لشركة الملاحة العربية المتحدة في كل من امريكا وكندا، ولها شبكة تزيد على ٣٥ مكتبا في جميع المدن والموانيء الرئيسية، وتحتفظ شركة الملاحة العربية المتحدة بمكتب تمثيل في كرانفورد بنيوجرسي.

خط أمريكا الجنوبية

وهو احد الخطوط الرئيسية للشركة، ويعود تاريخ انشائه الى سبتمبر ١٩٨٢م، حيث بدأت الشركة آنذاك بتسيير رحلة واحدة لسفن الحمولات العامة شهريا. وخلال تلك الفترة شهدت التجارة بين امريكا الجنوبية ومنطقة الخليج العربية نموا مطردا. وهذا بدوره شجع الشركة على زيادة عدد رحلاتها حيث بلغت ثلاث رحلات شهريا. وبذلك أصبحت مركز النقل الرئيسي للتجارة على هذا الخط. وقد استفادت الشركة من سفنها ذات العنابر المزدوجة والتي تبلغ حمولتها ٢٣٨٠٠ طن لنقل بضائع الحمولات العامة التي تميز تجارة امريكا الجنوبية، مثل الحبوب وخامات الحديد وغيرها.

وتنطلق سفن الشركة من موانيء الخليج العربي والبحر الأحمر الى موانيء البرازيل والارجنتين، ومؤخرا تم توسيع نطاق الخدمة على هذا الخط ليشمل موانيء شمال افريقيا والمحيط الهندي.

ولم تقتصر الشركة في نشاطها على عمليات النقل البحري بل توسعت لتشمل تقديم المساعدات في مجالات عديدة مثل تشجيع وتسهيل مهمة البعثات التجارية بين المنطقتين وتزويد التجار في كلا المنطقتين باسماء وعناوين المؤسسات العامة والخاصة التي يحتمل أن تقام معها علاقات تجارية، وتوثيق المستندات اللازمة للمصدرين الموجودين خارج امريكا الجنوبية.

خط الشرق الاقصى

تعد شركة الملاحة العربية المتحدة واحدة من شركات الملاحة التي يغطي نشاطها مناطق مختلفة من العالم. والفضل في ذلك يعود الى جهودها المتواصلة في متابعة النشاط التجاري في العالم. وفي هذا الصدد، يقول الاستاذ حامد ذو الفقار عبدالرحمن نائب المدير العام للخطوط الملاحية: «تتميز منطقة الشرق الأقصى في الوقت الحالي بنشاط تجاري ملحوظ مع منطقة الخليج العربي وهذا النشاط دفع بشركة الملاحة العربية المتحدة الى التركيز في الآونة الأخيرة على تلك المنطقة. فقامت بتسيير خمس سفن حاويات شهريا على هذا الخط، وتبلغ حمولة كل سفينة ١٨٤٦ حاوية نمطية، وهذا الخط، يربط اربع دول في الشرق الأقصى هي «اليابان» و«تايوان» و«هونغ كونغ» و«سنغافورة» مع موانيء قابوس، دبي، الدمام، البحرين والكويت على الخليج العربي، وميناء جدة على البحر الأحمر.

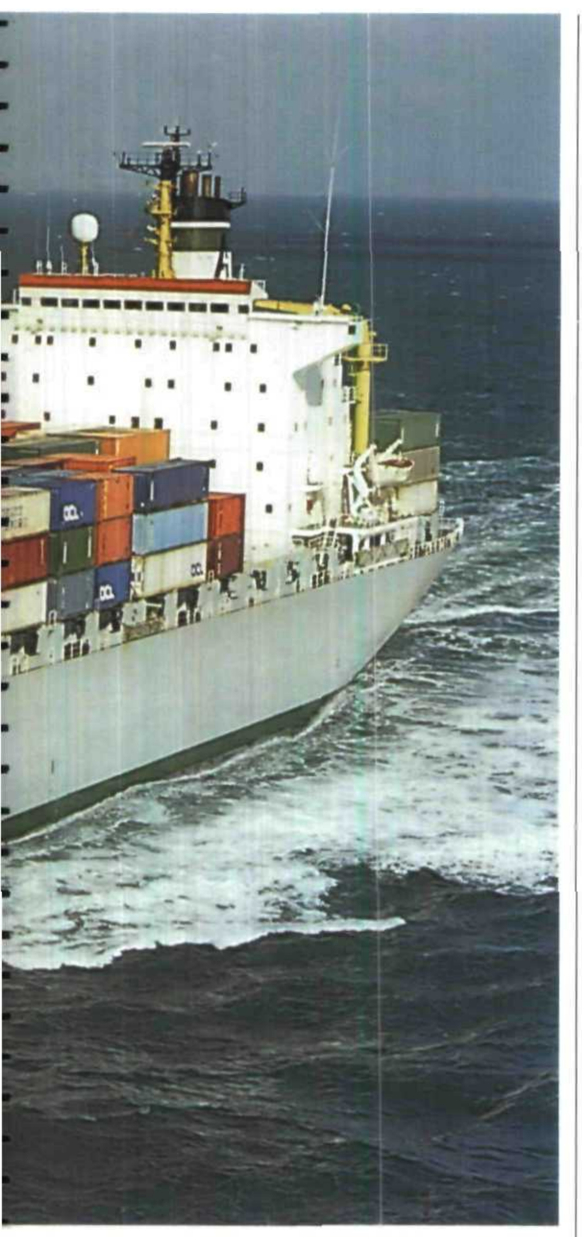
ولغزي هذا الخط رحلتان اسبوعيا من تايلند والفلبين واندونيسيا. اضافة الى ثلاث رحلات شهريا لسفن الحمولات العامة، تعمل على هذا الخط. كما يتم نقل البضائع الهندية الى مختلف مناطق العالم عن طريق هذا الخط، وقد اختيرت دبي كميناء اعادة الشحن لأنه الأكثر ملاءمة لتحويل البضائع من والى خطوط الشركة الرئيسية، حيث تؤمه حوالي اثنتي عشرة سفينة من سفن الحاويات للشركة شهريا، وهذا بدوره يضمن عدم حدوث أي تأخير على الاطلاق لعملية اعادة شحن الحاويات.

واجمالا فان شركة الملاحة العربية المتحدة هي الشركة الوطنية للدول المساهمة في الخليج العربي، وهي بذلك تمثل مصالح تلك الدول وتسعى دائما للحفاظ عليها من خلال اشتراكها في جميع الاتحادات الملاحية التي تخدم موانيء الخليج العربي والبحر الأحمر.

الادارة والتدريب

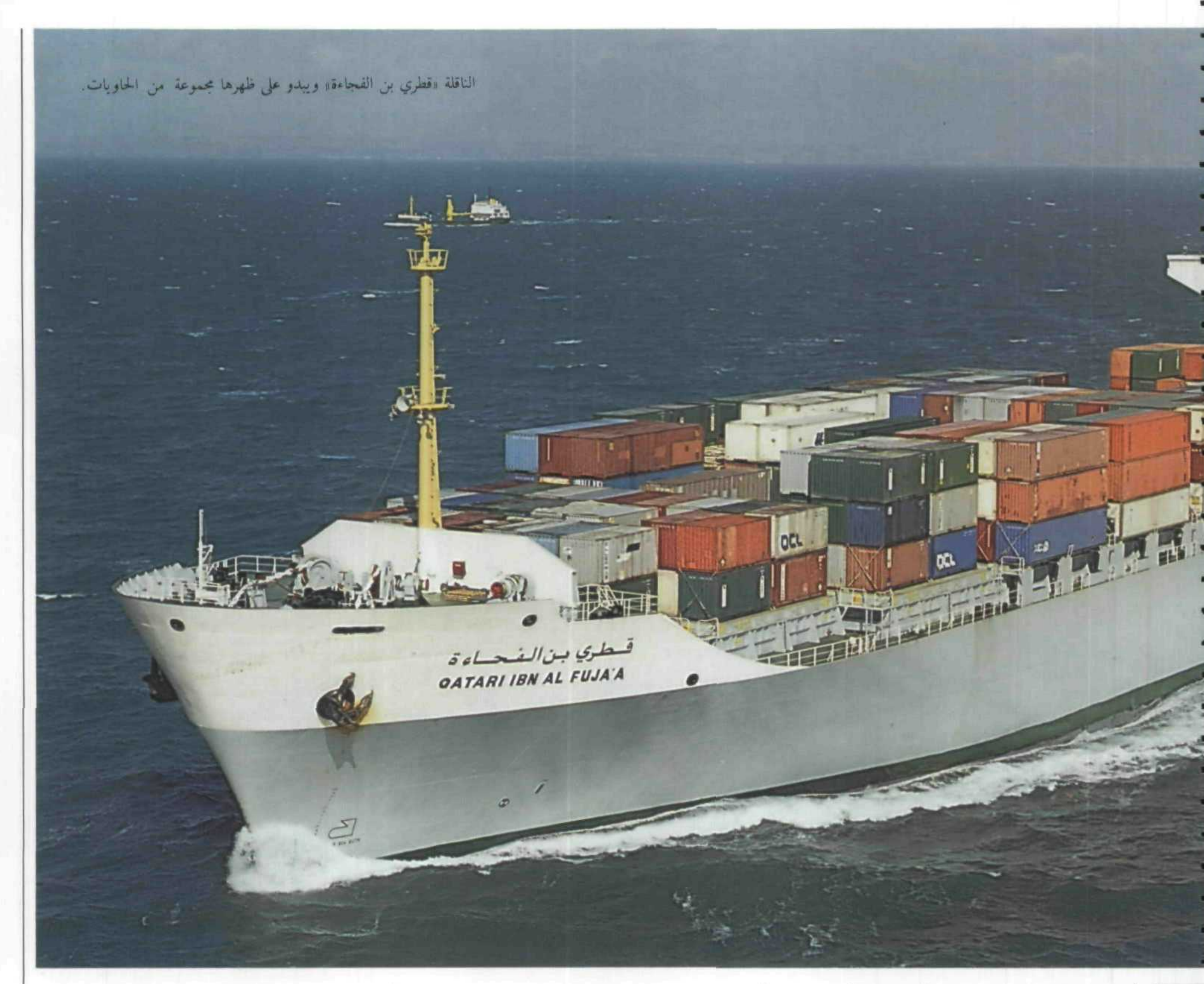
منذ أن خرجت شركة الملاحة العربية المتحدة الى حيز الوجود، أي قبل عشر سنوات، وهي تسعى الى بناء قاعدة اساسية، من ابناء الخليج العربي، لادارة وتشغيل اسطولها البحري. ومن أجل تحقيق هذا الهدف الوطني، اتجهت الى ابناء الدول المساهمة، وهيأت الفرص امامهم لتولي تلك المهام. في مجال الادارة، يقول الاستاذ عبدالله ماضي الماضي، نائب المدير العام للذاتية والادارة: «لقد خطت الشركة خطوات كبيرة في مجال التنظيمات الادارية سواء ما كان يتعلق بالتنظيمات أو الهياكل التفصيلية. ونقل الفعاليات الرئيسية من بريطانيا الى المركز الرئيسي في الكويت ودول الخليج، وأخيرا مواصلة الشركة لتطوير أنظمة الحاسب الآلي لديها في مجالات المالية والعمليات والذاتية.

أما التدريب فهناك نوعان هما، التدريب الاداري والتدريب البحري. في مجال التدريب الاداري، خطت الشركة خطوات واسعة في هذا المجال وقد اسفرت الجهود عن تولي





الاستاذ عبدالله ماضي الماضي، نائب المدير العام للادارة والذاتية.



الناقلة «قطري بن الفجاءة» ويبدو على ظهرها مجموعة من الحاويات.

منصب المدير العام ونوابه الأربعة من أبناء الدول المساهمة، وفي هذا الصدد يقول الاستاذ علي حسن جمعة مدير التدريب البحري بالوكالة: «ان التدريب الاداري بدأ يأخذ أبعادا جديدة منذ عام ١٩٨٣م من خلال جهود ادارة التدريب التي أخذت على عاتقها توفير الفرص الكثيرة لمختلف انواع التدريب، كما ان ادارة التدريب قامت بتوطيد علاقات متينة مع جامعة الكويت لخدمة اغراض التدريب، التي تمخضت عن اقامة ندوات علمية وتنظيم دورات تدريبية خاصة لموظفي الشركة».

واستطرد الاستاذ علي حسن جمعة قائلا: «وفي الوقت نفسه مدت ادارة التدريب جسور التعاون مع هيئات اقليمية وعالمية، مثل جامعة الملاحة العالمية في السويد، واكاديمية الملاحة النرويجية في اوسلو، ونظمت معها دورات خاصة في ادارة النقل البحري ومنظمة اليونكتاد — Unctad في جنيف وهذه بدورها توفر برامج تدريبية على نطاق دولي واسع وخاصة فيما يتعلق ببرنامج «ترينمار — Trainmar». كما شملت برامج التدريب أيضا اتصالات أخرى مفيدة مع معهد الادارة الدولي في جنيف فيما يتعلق بالادارة الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي واقامة ندوات معها في هذا المجال.

أما التدريب البحري، فقد أولته اهتماما خاصا واعطته أهمية كبيرة منذ بداية تأسيسها. وشركة الملاحة العربية المتحدة تنفق حوالي مليون دينار كويتي كل عام على برامج التدريب البحري. وترسل الشركة متدربيها، ومعظمهم من أبناء الدول المساهمة، في بعثات الى اكاديميات النقل البحري في كل من الشارقة والمملكة المتحدة، وقد اسفرت برامج التدريب عن توفير أكثر من ثلث العاملين على اسطول الشركة من العرب ويشمل التدريب البحري اقساما تضم: القسم البحري، القسم الهندسي، قسم الراديو وقسم الكهرباء وتتراوح مدة الدراسة في كل من هذه الأقسام ما بين خمس وسبع سنوات.

وبعد فان للنقل البحري في منطقة الخليج العربي بالذات والبحر الأحمر أهمية خاصة بالنسبة لدول الخليج العربي حيث أنه يمثل البوابة التي تطل منها تلك الدول على التجارة العالمية. وحسب شركة الملاحة العربية المتحدة فخرا انها قد حصلت عام ١٩٨٥م على أفضل ناقل بين اوربا والشرق الاوسط وفقا للاستطلاع العام الذي أجرته مجلة «الشاحنون والناقلون البريطانيون». وهذه شهادة كافية تدلل على المكانة التي بلغتها الشركة في مجالات النقل البحري □

تصوير: عبدالله دبيس
وعلي عبدالله خليفة/ارامكو
وشركة الملاحة العربية المتحدة

من حصاد الكتب:

الخطيئة .. والتكفير

تأليف: د. عبدالله بن محمد الغذامي
عرض: عبدالله بن أحمد الشباط / الخبر

ليس المهم أن نقدم عملا جيدا فقط وانما المهم أن نجد الى جانب ذلك العمل من يفهمه ويقدره. وقبل مدة صدر كتاب «الخطيئة والتكفير» للدكتور عبدالله الغذامي، فكان حديث الموسم الأدبي. وقد صدر هذا الكتاب عن النادي الأدبي بجدة عام ١٤٠٥هـ، وطبع بمطابع دار البلاد على ورق مصقول وغلاف فاخر في ٣٨٠ صفحة من الحجم الكبير.

وهذا الكتاب دراسة مقارنة للأدب الحديث متنقلا من «البنيوية» الى «التشريحية» في الأدب مرورا بالعديد من المسميات الأدبية كالسيميولوجية والخصوصية والشاعرية وغيرها من تلك المناهج التي تتناول الدراسة الأدبية من زوايا ورؤى مختلفة تخضع لحس الناقد وتقديره للأثر الأدبي ونظرته النافذة لما فيه من معطيات.

والدكتور الغذامي لا يقدم تعريفات أو مصطلحات، وانما دراسة تحليلية وافية عن كل منهج من تلك المناهج متخذا من الشريف الرضي وشوقي وحمزة شحاته، مثالا للمقارنة والتدليل على كل ما يريد أن يصل اليه المؤلف من شرح تلك النظريات الأدبية ونماذجها في الأدب العربي.

ولئن كان حمزة شحاته هو مدار البحث في هذا الكتاب، فان اتخاذه كأنموذج للأدب الحديث يدل دلالة واضحة على أن المؤلف قصد ابراز هذه الشخصية الأدبية وما لها من فعاليات في اثراء الحركة الشعرية في الحجاز.

والمؤلف لا يقدم القصيدة ثم يقوم بشرحها، بل هو يأخذ الأنموذج ليضعه على المشرحة فيستخرج منه ما يريد من الخلاصات الحية ثم يعرضه للمقارنة. وهو اسلوب متميز في أدبنا المعاصر، الا انه ليس بالجديد، لأن هناك عددا من قدماء النقاد انتهجوا المنهج نفسه، واتخذوا الطريقة ذاتها مع الاختلاف في أسلوب الطرح كابن سيناء، وابن جني، وابن فارس، وابن قتيبة، والباقلاني وغيرهم ممن اشار اليهم المؤلف.

يبدأ الكتاب في فصله الأول بالبحث عن الأنموذج وينضوي تحت هذا الفصل تفصيل لنظرية البيان أو ما يسمى بشاعرية النص. ثم ينتقل الى مفاتيح النص التي هي عبارة عن نظريات حديثة مقارنة، هي «البنيوية والسيميولوجية والتشريحية». وفي القسم الثالث من هذا الفصل، يختار المؤلف «فارس النص» متخذا من الناقد الفرنسي «رولان بارت» الذي عشق النص وسار في آفاقه متخذا من نظرية القراءة وتفسير الشعر بالشعر منهجا لدراساته النقدية.

ثم ينتقل من انموذج الناقد الى انموذج المنقود، وهو يتمثل في الجمل الشاعرية متخذا من أسلوب القراءة طريقا للفهم الصحيح ومعرفة ما يراد بحسب التأثير الذي يتركه الأثر الادبي في القاريء في كل مرة يقرأ فيها ذلك النص. والمؤلف يضع تعريفا لكل قراءة مثل:

- قراءة عامة لكل الأعمال، وهي قراءة استكشافية تذوقية مصحوبة برصد للملاحظات.
- قراءة تذوقية نقدية مصحوبة برصد الملاحظات مع محاولة استكشاف النماذج الاساسية.
- قراءة نقدية تعمد الى فحص النماذج بمعارضتها مع العمل على أنها كليات شمولية تتحكم في جزئيات العمل الكامل.
- دراسة النماذج على أنها وحدات كلية بناء على مفهومات النقد التشريحي.
- الكتابة، وهي اعادة البناء وفيها يتحقق النقد التشريحي اذ يصبح النص هو التفسير، والتفسير هو النص.

كانت تلك هي أهم عناصر النقد الأدبي التي تحدد مسار دراسة الناقد للعمل الأدبي وهو ما سلكه المؤلف أثناء دراسته لأدب حمزة شحاته متخذا قاعدتين تكملان بعضهما البعض:

الأولى: اختيار الجمل الشاعرية وتقديم نماذج منها. وفي هذا الصدد يقول المؤلف: «ان القصيدة تبدأ منبثقة كانبثاق النور أو كهطول المطر. وتنتهي نهاية شبيهة ببدايتها وكأنها تتلاشى فقط وليس تنتهي. ودائما ما تأتي الجملة الأولى وكأنها مد لقول سابق أو استئناف لحكم قديم وانها لكذلك لأنها نص يأتي ليتداخل مع سياق سبقه في الوجود.»

ثم بعد شرح وتفصيل لتلك العبارات يقرر ما يأتي: «ولذلك فانني سعيت الى تفكيك النصوص الى وحدات. وسأسمي الوحدة (جملة) وهي أصغر وحدة أدبية في نظام الشفرة الأدبية للجنس الأدبي المدروس».

ثم ينتقل بعد ذلك الى ما اسماه بـ«الجملة الاشارية الحرة» وهذه تشمل نوعين من الجمل: الجملة الشعرية وجملة القول الشعري.

ويعرف الجملة الشعرية بأنها: كل قول أدبي جاء على شكل شعري من حيث أنه يقوم على ايقاع مطرد على أي نظام فني لأي جنس شعري قائم.

ثم يقول: «وهذا شرط اساسي لاستحقاقها صفة الشعرية. ومن ثم دخولها تحت مظلة الجملة الاشارية الحرة. فالجملة الشعرية لا بد أن تكون تجسدا لغويا تاما يسمو على المعنى.

اما مكوناتها فهي: الايقاع، والتحكم والتفاعل وهو في شروط تكوين البنية الاساسية للأثر الأدبي.

أما جمل التمثيل الخطابي التي يزخر بها الأدب العربي فهي تتجه نحو تأسيس قول جامع لمعنى ثابت، كما يقول المؤلف، وفيها تسخر الكلمات بكل طاقاتها البلاغية لأداء ذلك المعنى المحدد وخدمته. وهذه اما ان تكون لغرض تكثيف الدلالة في البيت كجزء من احساس النشء بهذه الحاجة، واما أن تكون مجرد محاولة بلاغية لتحميل اللفظ بما يراه الشاعر دلالة قصوى لذلك اللفظ.

وهذه الجمل تعتمد على التركيز المنطقي وهو اعتماد يعمي الشاعر عن حركة النص ويوقعه في تناقض مع نفسه بسبب التناقض بين منطقه ولغته.

ثم في الفصل الثاني يقدم فلسفة النموذج لدى حمزة شحاته، الذي هو مدار البحث، ويبدأ هذا الفصل بقول لحمزة شحاته: «انها ساعة حرجة ان تدور بعينيك في جميع الوجوه والعيون فلا تجد من يفهمك».

وفي هذه الدراسة يقرر المؤلف: ما من قاريء واع الا ويطمح ان يكون مشاركا للكاتب في اثراء النص عن طريق الاستجابة لموحياته — ثم ينتقل بعد تفصل الى جوهر ما يريد قوله: لهذا فاننا في هذه الدراسة لا نتصدى لتناول شعر ما وانما ندرس شعر شحاته وادب شحاته.

ويعتمد المؤلف في هذه الدراسة لأدب شحاته على:

- المعنى الجوهري.
- الدلالة الكلية لهذا الأدب، ويأتي ذلك من علاقة القول الأدبي بقائله ودلالته عليه.

والمؤلف يركز على الحس الأدبي أو الذوق الذي يجب أن يتصف به معرفة اللغة وآدابها لأنها هي التي تمكن الدارس الناقد من ادراك خصائص الجملة الشعرية. ويقدم نموذجا من شعر امرىء القيس:

وليل كموج البحر ارخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي

ويقول: لو شرحنا الليل بأنه الليل المعروف فاننا بذلك نقتل الكلمة في البيت ونقيدها في موضعها لا

حياة فيها. ولكن لو اطلقنا اسارها وعاملناها على انها اشارة قصد منها أن تثير في الذهن كلما يمكن اثارته في القراءة على تباين مشاربهم لكنا بذلك قد اعطينا حقها كقيمة فنية.

وفي الفصل الثالث وهو بعنوان: آدم حيا.. آدم خطاء.. يدخل المؤلف في عراك مع الكلمة لدى حمزة شحاته. لأنه يقف أمام شاعر ليس شاعرا بالمعنى العادي، وليس بكاتب كما تعرف الكتاب، ولكنه انسان عاش مع الناس ولم يكن منهم، وخرج من الحياة أو اخرج نفسه من الحياة وهو فيها.

وأدب حمزة شحاته، عند المؤلف، يدور حول عدد من المحاور:

• محور: (التحول — الثبات) وهو ما عناه حمزة شحاته بقوله: «انا لو نظرنا الى الوجود لما اصبنا معناه الا في الانسان ولو التمسنا معنى الانسان لما أصبناه الا في الزمن الذائب والزمن ليس الا احساسنا بالحركة والتحول. ولو وقف كل شيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة».

• محور: (الشعر — الصمت).. وهو ما يعني في فكر حمزة شحاته توحد الفكر مع السلوك كقوله:

شقيت بها بين الكهولة والصبا
مأرب لما اقض منهن مأربا
تقاضيتها عهد الهوى وقد انطوى
وما زلت ارجو فجرها مترقبا
يهيم خيالي في ذراها مجنحا
فيهوى جريحًا في هواه مخضبا
أرى مسرح الآمال اصفر خاويا
وقد كان مخضر الجوانب معشبا
الم جراح القلب فيه على الأسى
وصبرا عداه الكبر ان يتعتبا
ينوء بها صبري خيالا معذبا
وتمضي به الأيام شرا مغيبا

• محور: (الحب — الحد) وهو محور تقف فيه المرأة على نقطة الالتماس الحساسة في حياة حمزة شحاته وفي خطة تفكيره. لأن حمزه شحاته تعامل مع المرأة تعاملا حذرا. اذ كان يقول (في كل امرأة تسرك، امرأة أخرى تسوؤك». فهو بالرغم انه يحب المرأة ويرى فيها جانب الطهر والعفاف فهو يرى أيضا جانب الخطيئة. لأن الاولى روح والثانية جسد. وجهان لعملة واحدة، ان صح التعبير هما الفضيلة والرذيلة — كقوله:

وذهبت استسقي الفضا ئل والفضائل كالسراب
ظمآن بين الشاربين أخاف تعتعة الشراب
صفر اليدين من الحقيقة والحقيقة في وطابي
افخضت معركة الظلام الى سنى فجركذاب؟

وفي قصيدة أخرى يتجرد من هذه الحيرة ويخاطب حواء الصافية:

رؤى سماوية الآفاق رنحها
شذى الطلى يتندى من ثناياك
ونفحة من عبير الغيب يرسلها
للحالمين بسر الغيب رياك
ونغمة من اغاني الخلد وقعها
لمهجتي طرفك الساجي وعطفاك

لكن عندما تنقلب حواء الى نسخة أخرى لصورة يتمثل منها الغدر فيلوم قلبه على هذا التعلق بطيف امرأة يوجد مثلها الكثير فيقول:

ما كنت يا قدري العاتي سوى امرأة
ممن مررن بقلبي لو توقاك

وفي الفصل الرابع الذي يعنونه المؤلف بـ«انفجار الصمت». نجد المحصلة النهائية التي اراد الخلوص اليها من تلك المقدمات والتدرج في تقديم المدارس النقدية الحديثة بدءا من البنيوية حتى انتهى الى التشريحية.

ويبدأ المؤلف هذا الفصل بمقطوعة لحمزة شحاته يقول فيها:

لماذا كان الصمت
نصيب المتطلع للكلمة.. للتفسير
قد طالت مرحلة الابهام
وكرهت الصمت
واشتقت الى كسر قيودي

يقف المؤلف أمام هذه المقطوعة رافضا الوقوف موقف المتفرج. فقد انتهى زمن العجز امام النص، وارتقى حس القاريء ليكون مشاركا في بناء ذلك العمل واعادة تشكيله. ومن هذا المنطلق يتناول نصا آخر بعنوان: «يا قلب مت ظمأ» قال فيه الشاعر:

يا قلب غرك من ماضيك رونقه
وان حظك فيه كان مؤتلقا
وان مسرح لذات الهوى شرع
حوى الحياة مدى ضم الهوى افقا

الى أن يقول:

فاليوم نوزعت في مثواك حرمته
وعدت تشهد من عبادة فرقا
وزاحمتك على اركانه مهج
عبادة الحب فيه تشبه الملقا
والماء الا ماء يا قلبي فمت ظمأ
ودع مدنسه يهلك به شرقا

ويبدأ المؤلف بتناول هذا النص بدءا من العنوان. اذ أن هذا العنوان لم يكن سوى جزء من البيت الأخير مما يدل على أن الشاعر لم يفكر فيه منذ البداية. لذلك لم يكن له أي أثر على مطلع القصيدة أو مقدمتها. ثم يأخذ في تفكيك العنوان بدءا من حرف النداء «يا»، ثم يأخذ في تشريح النص الأدبي مستدلا على استنتاجاته بأقوال للشاعر نفسه.

وفي الفصل الخامس وهو ما اسماه بـ«الموال الحجازي» يحاول المؤلف أن يدخل الى أعماق الجمال الفني فيقف عند بعض ابيات من قصيدة «جدة» التي يقول فيها:

النهى بين شاطئيك غريق والهوى فيك حالم ما يفيق
ورؤى الحب في رحابك شتى يستفز الاسير منها الطليق
ومعانيك في النفوس الصديا ت الى ريها المنيع رحيق

ثم يتساءل: ما الذي يجعل هذه الأبيات شعرا؟

ويجيب: قلت أن تجربتي الشخصية مع هذه القصيدة تأتي من طربي لها ومن نظرتي في معانيها، وهي تجربة يشاركني فيها الكثير من متذوقي الشعر وقرائه.

وبعد ان يحلل القصيدة ويفكك عباراتها وكلماتها على أسس فنية تعطي الخلاصة التالية التي يختم بها هذا الفصل: «ولكن انفتاح المدى في القصيدة واعتمادها على الزمن المتمدد بين عناصرها ثم اطلاق النبر في هذه العناصر واتباع نسق ايقاعي متشكل منح القصيدة حركة ايقاعية تبلغ فيها مبلغا عاليا في الايقاع الاشاري المتحرك والحر».

يختتم الكتاب بفصله السادس تحت عنوان «الصوت المبحوح» او تقريب المألوف، وهو مقارنة بين قصيدتي الشريف الرضي التي مطلعها

يا طبية البان ترعى في خمائله
ليهنك اليوم ان القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك الا مدمعي الشاكي

وقصيدة حمزة شحاته «غادة بولاق» التي مطلعها:

الهمت والحب وحي يوم لقياك
رسالة الحسن فاضت من محياك
من أين يا افقي السامي طلعت بها
حقيقة ما اجتلاها النور لولاك

ثم يقدم تحليلا تشريحيا لقصيدة حمزة شحاته ويشير الى توارد الخواطر بينه وبين الشريف الرضي وبينه وبين شوقي في قصيدته التي مطلعها:

يا جارة الوادي طربت وعادني
ما يشبه الاحلام من ذكراك

والمؤلف يقدم دراسة تتخذ مسارا جديدا في النقد الأدبي يعتمد على الحس الأدبي والموهبة والعلم ومتانة البنية اللغوية لديه.

وقد الحق المؤلف كتابه بقائمة المراجع باللغة العربية وقد ضمت اثنين وخمسين كتابا وباللغة الانجليزية بلغت اثنين وثلاثين كتابا، ثم فهرسا للاعلام ثم فهرسا للموضوعات.

وبعد،

ان عبدالله الغذامي علاوة على ما يتمتع به من موهبة أدبية، لديه من المعين اللغوي والدراسة الاكاديمية ما يمكنه من وضع تلك الدراسة الفنية التي تهم في الدرجة الاولى دارس الأدب وممن يتجهون بوجه الخصوص الى دراسة المذاهب الحديثة في النقد. ويعتبر هذا الكتاب واحدا من المراجع التي يعتمد عليها عند دراسة الأدب المعاصر على أسس حديثة تتناول النص بحسب المكان والزمان والحالة النفسية لدى صانع النص. وهو منهج لو انتهجناه لاستطعنا أن نتعامل مع النقد معاملة تسهم في اثراء الحركة النقدية □

جهود علماء العرب في دراسة الأصوات اللغوية

بقلم: د. سميح أبو مغلي / الأردن

صحيح ان علم الاصوات اللغوية، كعلم مستقل له مناهج وأصول، لم يعرف الا في نهاية القرن الماضي، وبداية القرن الحاضر، عندما ازدهرت العلوم اللغوية وظهرت مدارس ونظريات بلورت علم اللغة الحديث، ولكن من المؤكد أن أفكارا ونظريات في الأصوات اللغوية قد جادت بها قرائح علماء اللغات هنا وهناك منذ القديم.

ولقد شهد علماء الغرب لبراعة العرب القدماء وتفوقهم في مجال الدراسات الصوتية، فقد قال برجستراسر: «لم يسبق الاوروبيون في هذا العلم الا قومان: «العرب والهنود». وقال فيرث: «لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في احضان لغتين مقدستين: العربية والسنسكريتية».

والحقيقة أن علماء العرب والمسلمين قد اسهموا في هذا المجال منذ وقت مبكر، ولعل تلك القصة المعروفة عن بداية وضع نظام للتفريق بين حركات الاعراب هي أول اسهامات العرب في الدراسات الصوتية.

ومجمل هذه القصة أن أبا الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هجرية، عندما تردد في تلبية طلب زياد بن سمية والي البصرة في وضع نظام للتمييز بين حركات الاعراب خوفا على كتاب الله من اللحن والتحريف، أجلسوا في طريقه رجلا يقرأ القرآن بشيء من اللحن، فقرأ قوله تعالى: ﴿**ان الله بريءٌ من المشركين ورسولَه**﴾. قرأها بكسر اللام في (رسوله)، ففزع ابو الاسود الدؤلي وطلب كاتبا، وأخذ يرشده ويأمره بقوله: خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فاذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه، واذا كسرتها فانقط واحدة اسفله، واذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدي الحرف. فان اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين» (وهو علامة التنوين).

ثمت خلال قصة نقط الشكل هذه نرى أبا الاسود الدؤلي يضع اساسا من أسس التفريق بين الحركات المختلفة، وذلك بالاشارة الى وضع شفاه المتكلم. ومن المعروف ان تصنيف الحركات في الدرس الصوتي الحديث يعتمد، فيما يعتمد، على هذا الاساس الفسيولوجي الذي ادركه أبو الاسود في ذلك الزمن القديم. وبالاضافة الى ذلك نرى أبا الاسود يهتم بوضع علامات ثانوية للشكل ذات أهمية خاصة في نظام الكتابة، وهو وضع نقطتين كعلامة للتنوين.

ولا بأس من التأكيد على ان استخلاص الحقائق وتصنيفها ووضع القواعد الخاصة بها عن طريق الملاحظة الذاتية — Introspection أو التجربة الشخصية او الانطباع الذهني الناتج عن هذه التجربة يعتبر نهجا سليما في دراسة الأصوات، ولم تزل الدراسات الصوتية الحديثة — تعد الملاحظة الذاتية بطريق النطق الفعلي والاستماع الى هذا النطق الوسيلة الاساسية في البحث الصوتي على كل مستوياته وفي كل مراحله. وعلى هذا يمكن القول بأن الدراسات الصوتية عند العرب كانت اجود الاعمال اللغوية من حيث منهج التفكير وطريقة الدراسة.

ومع أن الخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى سنة مائة وسبعين أو مائة وخمس وسبعين للهجرة، عرض للدراسات الصوتية في مقدمة معجمه «العين» عرضا يوحي بأنها لم تكن سوى مقدمة عابرة اراد من خلالها الدخول الى عمله الاصلي وهو ترتيب معجمه «العين» ترتيبا صوتيا، الا انه يعتبر رائد الدراسات الصوتية في العربية، فقد كان أول من وزع الحروف «الأصوات» على مخارجها، ونسب كل صوت «أو مجموعة» منها الى حيز «مخرج» معين من أحياز النطق.

ثم ان الخليل بأذنه الموسيقية، أدرك العلاقة بين الحركات القصار والحركات الطوال، وأدرك انها علاقة في الكم — Duration لا في الكيف، وبناءً على ذلك جعل للفتحة ألفا صغيرة مضطجعة فوق الحرف، وللكسرة ياءً صغيرة تحته، وللضمة واواً صغيرةً فوقه.

والخليل بن أحمد الفراهيدي هو الذي وضع علامات الشدة والسكون وهمزة القطع وهمزة الوصل، وهذه الرموز والعلامات ما كانت توضع الا بناءً على تفكير صوتي وتذوق لقيم الاصوات. ومن نافلة القول ان اهتماماته الصوتية هي التي هدته الى استنباط بحور الشعر وقواعد الأوزان العروضية.

ثم ان سيبويه المتوفى سنة مائة وثمانين للهجرة أورد بعض القضايا الصوتية في معرض دراسته لظاهرة الادغام في الصرف. وظاهرة الادغام، في حقيقة الأمر، ظاهرة صوتية صرفية في آن معا. وقد استغل الدارسون بعد سيبويه دراسة الاصوات في دراسة الادغام ومشكلاته، وتمكنوا من ربط هذه الظاهرة بالأصوات ربطا علميا دقيقا.

ثم جاء ابن جني ابو الفتوح، المتوفى سنة ٣٩٢هـ، فاستعمل المصطلح «علم الأصوات» في كتابه النفيس «سر صناعة الإعراب» للدلالة على دراسة الاصوات والبحث في مشكلاتها المختلفة على نحو ما جاء في الدرس الصوتي الحديث. زد على هذا انه ادرك علاقة هذا العلم بالموسيقى حيث يقول: «لعلم الاصوات والحروف تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الاصوات والنغم».

واستطاع ابن جني ان يدرك معنى الجهاز النطقي ووظيفته وطبيعته، فهو يشبهه بالناي، ويقارن بين عملية النطق وما ينتج عنها بحركات اصابع اليد على ثقوب الناي. فكما ان هذا التحريك من وضع للاصابع ورفع لها ينتج نغمات مختلفات فكذلك اعضاء النطق، حين تعترض الهواء او تسمح له بالخروج من هذه النقطة او تلك. يقول في هذا الشأن: «ولأجل

ما ذكرنا من اختلاف الاجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعها التي هي أسباب تباين اصدائها، شبه بعضهم الحلق والفم بالناي. فان الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فاذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين انامله اختلفت الاصوات وسمع لكل منها صوت لا يشبه صاحبه. فكذلك اذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الاصوات المختلفة».

ويعقد ابن جني فصلا خاصا في كتابه «سر صناعة الإعراب» تحت عنوان «ذوق أصوات الحروف» يشرح فيه كيف نتذوق الحروف «الاصوات» ونحاول نطقها، ويبين أهم خواص الحروف المختلفة من حيث كيفية مرور الهواء حال النطق، ويشرح مزايا الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والحركات الطويلة والقصيرة.

كما أوضح ابن جني في كتابه هذا العلاقة بين الحركات القصار والحركات الطوال والنسبة بينهما، وقسم مخارج الأصوات العربية الى ستة عشر مخرجا بشكل يدل على قوة ملاحظته وذكائه النادر. وقد سمَّى الحركات الطويلة بالمصوتات أو الحروف المصوتة، وهو بهذا يراعي خاصةً مهمةً من خواص الحركات عامة وهي خاصة قوة الوضوح السمعي — Sonority ، وقد تبعه في تسمية الحركات الطويلة بالمصوتات ابن كمال باشا، من علماء القرن التاسع الهجري في شرحه لكتاب «مراح الارواح» للمولى شمس الدين احمد المعروف بديكنقوز.

كما استعمل ابن جني في كتابه «الخصائص» المصطلح «صامت — Consonant » ليعني كل ما ليس حركة او حرف مد، وتبعه في ذلك كل من ابن كمال باشا وابن سينا.

وبعد ذلك يأتي السكاكي ليدرس في كتابه «مفتاح العلوم» الاصوات ويصنفها من وجهة نظر مختلفة، ثم يختم بحثه الصوتي بايراد توضيحي لجهاز النطق عند الانسان، موزعا الحروف على الأجزاء المختلفة لهذا الجهاز وهو عمل يدل على ادراك ووعي بقيمة الأصوات، وعلى معرفة دقيقة بمخارج النطق المختلفة للاصوات العربية، وهو عمل عظيم بمقياس ذلك الزمن القديم الذي تم فيه وضع هذا الرسم البياني التوضيحي.

ثم نرى الزجاجي في كتابة «الجُمَل» يتناول الاصوات ايضا كمقدمة لموضوع الادغام في الصرف، حيث يقول: «فأول ذلك معرفة مخارج الحروف ومراتبها وتقاربها وتباينها ومهموسها ومجهورها وسائر ذلك من أنواعها».

ولقد تفوق الزجاجي على غيره من اللغويين بالتعرض لقواعد الهجاء والاملاء وهي مسائل تدخل في نطاق علم الاصوات بلا شك.

ثم تأتي «رسالة ابن سينا في احداث الاصوات» لتفصل في الوصف الفسيولوجي التشريحي لاعضاء النطق.

وتدخل معظم الدراسات الاصواتية عند العرب في اطار ما يعرف في علم اللغة الحديث بالفونولوجيا وهو علم وظائف الاصوات، فقد جاءت تلك الدراسات مركزة على الوحدات الصوتية من صوامت وحركات، وقليلا ما عرضوا للاحداث الصوتية المادية.

وكانت للعرب في دراساتهم الصوتية اهداف تعليمية تتمثل في القصد الى تجويد النطق وحسن الاداء فيه، وبخاصة فيما يتعلق بتلاوة القرآن الكريم.

وجاء نظام الكتابة في العربية مبنيا على حقائق صوتية، من حيث وضع رمزٍ واحدٍ مستقلٍ لكل «فونيم» أي وحدة صوتية، وهذا النظام يتمشَّى مع احدثَ منهج في التفكير الصوتي الذي يهدف الى تأسيس نظم كتابية للغات خالية من الاضطراب والتعقيد، ومن أهم مميزات هذه النظم ان تكون على وفق المبدأ المشهور: «رمز واحد لكل وحدة صوت». كما يشير هذا النظام في وضع الابجدية العربية الى مدى ادراكهم لطبيعة الاصوات وخواصها والى قدرتهم الفائقة على التمييز بينها بالرغم مما بين بعضها من تشابه كبير، كالتمييز بين السين والصاد، أو الثاء والذال، حيث ينحصر الفرق في الترقيق والتفخيم، أو في الهمس والجهر.

كما استطاع بعضهم أن ينظر في اللهجات ووجوه الاختلاف بينها على أساس ما لاحظوه من فروق صوتية في هذه اللهجات.

وكذلك استطاع علماء البلاغة ان يفيدوا من الدراسات الصوتية إفادة ظاهرة، عندما تكلموا عما سموه (التلاؤم والتنافر) بين الحروف، وراحوا يضعون قواعد وقوانين عامة لهذين الضربين من التأليف، حتى يكون الأمر واضحا امام المنشئين للكلام نثرا ونظما. وقد حاول هؤلاء العلماء على خلاف مناهجهم، أن يربطوا هاتين الظاهرتين وغيرهما بصفات الاصوات ومخارجها وما تتسم به من مميزات أخرى.

ومن جهود العرب في الاصوات، ايضا، التوصل الى رموز لأصوات عربية صرفة، أو رموز تحتاجها اللغة العربية، وهذه الرموز في قولهم «تخذ ضظغ»، وذلك علاوة على ما ادخله علماء العربية على الابجدية من تعديلات مثل علامات التشكيل والنقط □

مصـــادر البحث:

١ — معجم «العين» للفراهيدي، تحقيق الدكتور عبدالله درويش، مصر.
٢ — «الكتاب» لسيبويه.
٣ — «سر صناعة الإعراب» لابن جني، جـ/١ تحقيق السقا وزملائه.
٤ — «الخصائص» لابن جني.
٥ — «شرح مراح الارواح» لابن كمال باشا — مطبعة البابي الحلبي ١٩٣٧.
٦ — «تاريخ الادب او حياة اللغة العربية» لحفني ناصف، ٦٦ — ٧٦.
٧ — «مفتاح العلوم» للسكاكي.
٨ — «الجمل» للزجاجي، تحقيق ابن ابي شنب ط/٢ باريس ١٩٥٧.
٩ — «النكت في اعجاز القرآن» للرماني، تحقيق محمد خلف الله احمد وزغلول سلام.
١٠ — «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي.
١١ — «المثل السائر» لابن الاثير.
١٢ — «دراسات في علم اللغة» للدكتور كمال بشر، دار المعارف ١٩٧٣.
١٣ — «علم اللغة العام — الاصوات» للدكتور كمال بشر.

أدباء من المملكة العربية السعودية:

محمد حسن فقي.. شاعر التأملات

بقلم: د. مصطفى ابراهيم حسين/ الرياض

ولد الشاعر محمد حسن فقي بمكة المكرمة في السابع عشر من ذي القعدة عام ١٣٣٢هـ. ثم انتقلت اسرته من مكة الى جدة، لسفر والده الى اندونيسيا، فأدخلوه — وهو دون السادسة من عمره — رياض الأطفال، وكانت تسمى آنذاك بالمجتمع الاخضر، وكانت تتبع مدرسة الفلاح بجدة. ثم التحق بالمرحلة التحضيرية، بمدرسة الفلاح ايضا، وتابع دراسته بها الى نهاية السنة الثانية.

وبعودة الوالد من رحلته الى اندونيسية، عادت اسرة فقي الى مكة، والتحق بمدرسة الفلاح بمكة، حتى تخرج، وعمل بها استاذا لمدة سنة واحدة، لمواد الأدب العربي والتاريخ والجغرافيا.

فقي والصحافة

عمل الشاعر محمد حسن فقي محررا بجريدة «صوت الحجاز»، ثم رأس تحريرها لفترة قصيرة، كما رأس تحرير جريدة «البلاد»، مع اثنين آخرين من كبار الأدباء السعوديين، وهما الاستاذ عبدالوهاب آشي، والراحل الشاعر محمد حسن عواد، وظل يرأس تحريرها، الى أن تم انتخابه كأول مدير عام لمؤسسة «البلاد». واستمر بها زمنا، وهو الآن يعمل مستشارا للمجلة العربية، ومشرفا على اعمالها في المنطقة الغربية، الى جانب نشاطه الأدبي الدؤوب.

وقد نشر فقي، الى جانب نشاطه الصحفي في صوت الحجاز، والبلاد، نتاجه الأدبي في العديد من الصحف السعودية، وما زال يتابع النشر حتى الآن، ومن هذه الصحف السعودية: المدينة، وصوت الحجاز، والبلاد.

أعماله الادبية

نشر محمد حسن فقي من الكتب ما يلي:

- قدر ورجل، وهو ديوان شعر.
- رباعيات، وهو ديوان شعر أيضا.
- فيلسوف، وهو كتيب صغير، سجل فيه خواطره على لسان فيلسوف.

أما أعماله المعدة للطبع فهي:

- نظرات وأفكار في المجتمع والحياة، جزآن.
- هذه هي مصر، وهو كتاب تاريخي، جزآن.
- الفلك يدور، كتاب ثقافي، في جزء واحد.
- ترجمة حياة، ويبدو انه في السيرة الذاتية، وهو جزآن.
- مذكرات رمضانية، وهو في ثلاثة أجزاء.
- مذكرات، وهو سيرة ذاتية، في ثلاثة أجزاء.
- دواوين شعرية، عددها تسعة عشر ديوانا، يعكف الآن على اخراجها، لدى كل من: الدار السعودية للطبع والنشر بجدة، ودار المعارف بالقاهرة. ويبدو أن هذه الدواوين ستضم نتاجه الشعري الغزير الذي لا ينقطع مدده على صفحات جريدة الرياض خاصة.

في المحافل والمؤتمرات

مثل محمد حسن فقي بلاده في العديد من المؤتمرات، من بينها: مؤتمر باندونج بأندونيسيا، ومؤتمر الأدباء بالجزائر، ومؤتمر الأدباء بالمغرب. كما أن جامعة الملك عبدالعزيز بجدة قد كرمته في مؤتمرها الأول للأدباء السعوديين، وذلك بمنحه لقب «رائد».

شاعرية فقي

اذا شئنا ان نحدد موقع محمد حسن فقي من الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، قلنا: ان فقي هو من جيل الرواد في المدرسة الحديثة في الشعر السعودي الحديث، وهو الجيل الذي آثر الاتجاه الرومانسي في التعبير الشعري، ويشارك محمد حسن فقي من الرواد كثيرون منهم: طاهر زمخشري، وحسين سرحان، والأمير عبدالله الفيصل، وحمزه شحاته، وابراهيم هاشم فلالي، وغيرهم كثير.

وقد كان فقي ممن ضم اشعارهم كتاب «من وحي الصحراء» الذي جمع مؤلفاه عبدالله بالخير وعبدالمقصود مختارات من الشعر والنثر لطائفة من الأدباء السعوديين، وقدم له المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل. وكان احتواء هذا الكتاب على انتاج أديب معين، يعني اعترافا بنبوغه وريادته.

وربما حظي «فقي» في «وحي الصحراء» بعدد من القصائد والمقالات، لم يحظ به سواه ممن ضم الكتاب لهم مقالات أو اشعار. ولسوف تظل هذه الكثرة — من الانتاج الشعري بالذات — مؤشرا لغزارة الانتاج، وخصوبة القريحة لديه، وهما الطابع اللازم للشاعر محمد حسن فقي حتى الآن، وان ظل المنشور من شعره في الصحف أضعاف ما ضمه ديواناه: قدر ورجل، ورباعيات.

وبوسعنا أن نرد عناصر الرومانسية، التي ينتسب اليها فقي، الى مصدرين اساسيين، وهما:

• مدرسة المشرق الممثلة في شعراء (ابولو) خاصة، ومنهم: علي محمود طه، وابراهيم ناجي، ومحمد عبدالمعطي الهمشري، وصالح جودت.

• مدرسة المهجر، ومن أبرز شعرائها: ايليا ابو ماضي، وجبران، ونسيب عريضة، وفوزي المعلوف.

وبوسعنا أن نقرر أيضا بأن «فقي» كان متأثرا بالمدرستين معا، غير أنه قد تأثر بمدرسة المهجر أكثر من مدرسة المشرق، وسوف نورد من الدلائل ما يصادق هذه الدعوى ويسندها، في موضعها من هذه الدراسة.

إن عناصر الرومانسية، في شعر محمد حسن فقي، واضحة لقاريء شعره ودارسه على السواء، فمن تعبير اغترابي حاد، الى هيام بالطبيعة ولواذ بها، وتحليق بعيد في الخيال، ونزوع الى الكآبة والحزن، وتجديد في الاداء.

ومع هذا، فان رومانسية محمد حسن فقي، ليست مجرد تهاويم ونزوع ذاتي محض، وهروب وهموم واغتراب، ولكنها، الى كل ما تقدم، تنطوي على رصيد فكري وفلسفي، زاخر بالتساؤل والتأمل. كما ان تفلسف «فقي» وتأمله وتفكره، ليس نزوعا عقلانيا محضا، يضفي على تجاربه النثرية والتقريرية، ولكن تفلسف الشاعر وتأمله، ممزوج بوقدة الالم، ولفح المعاناة، ونبض المشاعر، وبتاريخ الاغتراب والعذاب المحض.

لقد نجح محمد حسن فقي، في الأعم الاغلب من تجاربه، في أن يحقق التوازن والتعادل بين الشعور النابض المتوهج، والفكر المتسائل المتأمل.

ولعل النزعة الفكرية الواضحة في شعر محمد حسن فقي، هي أوضح الدلائل على تأثره بمدرسة المهجر على نحو يفوق تأثره بمدرسة المشرق. وهي — في الوقت نفسه— من أوضح الطوابع التي تميز محمد حسن فقي، بين اقرانه من رواد الحركة الرومانسية السعوديين، وتطبع رومانسيته بطابع متفرد.

أما عن منابع هذا المنزع الفكري لدى محمد حسن فقي، فتتمثل، عدا تأثره بالمهجريين، في ثقافته الفلسفية التواقة ابدا الى قراءة ما أثر عن فلاسفة الشرق وفلاسفة الغرب. اذ قرأ لكل من: المعري، والغزالي، وابن سينا، وعمر الخيام. كما استهواه فكر الجاحظ وعقلانيته الواضحة في ادبه النثري. اما من قرأ لهم من فلاسفة الغرب، فأوجست كونت، ونيتشه، وشوبنهاور، وهيوم، وديوي، وفلاسفة المذهب البراجماتي. وقد اعترف فقي بأنه شغوف بالقراءة الفلسفية، وبأنه قد قرأ من تقدم ذكرهم من فلاسفة الشرق والغرب.

فقي وفوزي المعلوف

مضى بنا القول حول تأثر محمد حسن فقي بمدرسة المهجر أكثر من تأثره بالمدرسة الرومانسية المشرقية، وهو، كما أسلفنا، قول يقوم مقام الدعوى، التي ينبغي أن يساندها الدليل وقلنا، أيضا، أن شعر، فقي، ينزع الى «الفكر والتأمل»، ومن ثم فان في منزعه ذاك أحد الدلائل على تأثره بمدرسة المهجر، ولا نود أن نستطرد بالحديث عن مساره، فنشير، موجزين، الى أن مدرسة «الديوان»، كانت مدرسة تأمل وتفلسف، وان «الفكر» عنصر اصيل فيها، غير انه، في الأعم الأغلب، كان فكرا نثريا تقريريا، ولم يكن فكرا شاعريا، يلتحم بنسيج التجربة الشعرية، ويذوب في مزيجها المنساب ذوب الرحيق. وهي دعوى نرجو أن يكون لنا عود اليها في دراسة مستقلة.

ونعود الى قضية «الفكر في شعر محمد حسن فقي وعلاقته بمدرسة المهجر». فنضيف من دلائل هذا التأثر الواضح:

• معارضة محمد حسن فقي لمطولة، فوزي المعلوف، على «بساط الريح». اذ جرد، فقي، من نفسه انسانا يسبح مع شاعر في عوالم شتى من الكون، فهو يخاطب روح ذلك الشاعر، ويستحثه على أن يعرج به في عالم الروح، ويطوف به على سكان الجو، مباعدا اياه عن هذه الأرض الموبوءة، التي تنمر الشر بها، واغتال بوحشيته روح الخير. يقول محمد حسن فقي من قصيدته:

يا شاعرا أرسل الحانــه
فحرك القلب واشجانــه
عرجت بالـروح الى عالـم
انكر فيه الـروح جثمانه
حلق بنا، فالأرض موبـوءة
وطف بنا الجـو وسكانـه
تنمر الشر بهـا عارمـا
فجدل الخير واعوانـه

ويذكرنا هذا التحليق الهروبي من واقع الناس والأرض، بقول فوزي المعلوف في مطولته:

لاتخافي يـاطيرمـا انـا الا ... شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم متعبا ينشدالرا ... حة في هدأة السكون وسحره
فر عن أرضه فرارك عنها ... من ذي أهلها، وتنكيل دهره

ثم يتساءل محمد حسن فقي: هل يستشري الشر، ويمد للمجرم في اجرامه ويبسط في الأرض سلطانه، حتى يؤله العالم طاغوته وشيطانه! أم ينتصر الخير، ويبسط اجنحته على الأرض؟ ان تساؤل الشاعر هنا، يحمل شعاعات من تفاؤل، وبصيصا من أمل، فهو يؤمن بانتصار الحق، وبأن الخير سيكون مع خصمه اللدود حليما، يلقاه بالاحضان، لأن تلك شيمة الخير في عنصره الزاكي، الذي يعاف المنى الحقيرة.

لكنه الخير حليمـا، فما
أضلـه الحلم ولا شأنه
ورب مخلوق يخاف الردى
وغالب تلقـاه احضانـه
والعنصر الزاكي يعاف المنى
حـقيرة تـغـتـال وجـدانـه
فـخـل لـلشر احـابيـلـه
وخـلـه يجتر اضـغـانـه
فسوف يغـدو طللا باليـا
يؤوي الى الوحشة غربانـه
وسوف يغدو الخير بين الورى
نبراسـه الهادي، وربانـه

وهكذا تفصح الصورة الأخيرة عن تفاؤل الشاعر، وايمانه بانتصار الخير ابدا، وهزيمة الشر والخساره. ويتحول تساؤله المرتاب الى يقين مطلق في انتصار الخير.

أما فوزي المعلوف، فيقول في مطولته:

نسي الخيرحين اوغـل في الشـ ... ـر فداس الضمير في عصيانه
حسد ناهش بقية ما في ... نفسه من ابائه وحنانه
وأنانية تحل له القتل ... لتحقيق غاية في كيانه
زج بالعلم في الفضاء طيورا ... من جماد يديرها ببنانه
ما بناها الا لهدم المباني ... ولسفك الدماء في طيرانه

ومع أن محمد حسن فقي قد عارض فوزي المعلوف في مطولته الشهيرة، فانه في معارضته، لم يجار المعلوف في تشاؤمه المطلق، وتسليمه بانهزام الخير أمام الشر. اذ كان، فقي، متفائلا، وان جارى شاعر المهجر في تصويره لأهوال الحاضر المنهزم، واقراره بضراوة الصراع.

إن فقي قد تجاوز صورة الحاضر المنهزم الى آفاق مستقبل مشرق بالأمل زاخر، بالتفاول والأمان، ولعل هذه النزعة —نزعة التفاؤل— هي من السمات التي تميز شعراء مرحلة التجديد الرومانسي في الأدب السعودي الحديث بشكل عام. ان الشاعر السعودي، باك شاك، حزين مكتئب، غير أنه في خاتمة المطاف، يستعلي على دموعه وكآبته وأحزانه، ويزرع في الأرض القاحلة عودا أخضر، ويعلق مصابيح الامل الباسم المشرق في ظلمة الليل الداجي.

مع العروبة والاسلام

سبق القول عن رومانسية محمد حسن فقي، كما أسلفنا الحديث عن نزوعه الى «التأمل والتفلسف»، ورأينا انه في مورده ومشربه أكثر تأثرا بالمدرسة المهجرية، في الجمع بين عالم الرومانسية الحالم المجنح، وعالم الفكر المتأمل المتسائل، ونتناول هنا ملمحا آخر من ملامح التجربة الشعرية لدى الشاعر «محمد حسن فقي»، وذلك هو التزامه بهموم أمته وبواقعها الذي يجسد محنة الصراع الدامي، من أجل الخلود.

لقد أفرد الشاعر، في ديوانه قدر ورجل، فصلا كاملا بعنوان «عروبة واسلام»، وضمنه عددا من القصائد التي تشخص خط الالتزام لدى الشاعر، وهي:

- من وحي النبوة.
- مكـــة.
- يوم وطني.
- من وحي البسفور.
- من وحي المؤتمر الاسلامي.
- العروبة والاسلام.
- حرة ثارت.

ان الرؤى المهمومة في رومانسية الشاعر، والرؤى المتأملة في تفلسفه، اذن، لم تعزله عن واقع العرب والمسلمين وهمومهم. فقد وقعت قيثارته الحانا باسمه حينا، وباكية حينا آخر، تعبيرا عن افراحها واحزانها.

في قصيدة «من وحي المؤتمر الاسلامي»، يتخذ الشاعر من وطنه رمزا لتاريخ مجيد، جمع، في طواياه امجاد العروبة والاسلام، فيستدعي الشاعر مجد النبوة المحمدية الخالدة، وامجاد الرجال الذين تحلقوا من حوله:

يا موطن الحب الرفيع وموطن العز المنيع بيأسه وخلاله
يامن اضاء الكون نور محمد — في ارضه فسما به وبآله
من كل اروع، لومشى بكتيبة — لتمزقت يوم الوغى بصياله
وتراه في محرابه متعبدا — لله خوف عقابه وسؤاله

○ ○ ○

ياموطن الاحرار ليس لموطن — نحميه ان يهتز في اغلاله
من ها هنا نبثق الضياء فرده — لشغوره وسهوله وجباله
ناديتهم فأتوا اليك فقل لهم — كونوا بني الاسلام اسد رجاله
كونوا له ما يشتهيه فانكم — في يومه المرجو من آماله

والشاعر في هذه القصيدة يستدعي التاريخ: في المواقف والرجال، فالقيمة التراثية لديه تحمل المعاصرة والامتداد وتجسد معنى استلهام قيم التاريخ ومثله، من أجل الحاضر والمستقبل.

ولعل مما يستوقف القاريء للقصيدة التي منها الأبيات السابقة، ان الشاعر قد استخدم فيها «المقدمة الغزلية»، واستطاع أن يذيب غزله ذوبا في مضمون قصيدته، فيقول في المطلع:

يا مرحبا بهجيرة وظلاله
وبمائه الجاري هناك وآله
وبروضه الحالي. وبلبل روضه
وبليده وصخوره ورماله
يبدين زينتهن دون تبرج
ويلحق للمعمود فوق مناله
لو يشترين لجاد كل مغامر
لينالهن بروحه وبماله
لكنهن نفائس ما تقتني
الا اذا أفضى الهوى لرجاله

ان جو هذا المطلع الغزلي يأتي ارهاصا لمضامين القصيدة في حرص الشاعر على اضفاء العفة والتقى، حتى تتسق مع الجو الاسلامي العام في القصيدة كلها، كما لم يأت بالمطلع الغزلي منذ البيت الأول، وانما جعل الاقتباس القرآني في قوله «يبدين زينتهن دون تبرج».

أما قصيدته «العروبة والاسلام»، فانه فيها يلح على فكرة هامة، وهي «ابطال فكرة العروبة معزولة عن الاسلام»، فيما ردده خصوم الاسلام من دعاوي قومية زائفة، اشبه بدعاوي الجاهلية. يقول الشاعر:

قالوا عن الدين الحنيف بأنه
تزهو حضارتهم بغير لباسه
وتستروا خلف العروبة والهوى
باد يميط الستر عن احلاسه
يا ويحكم ان العروبة قد زكت
بالدين، وهي تعد من حراسه
تبا لكم! ان العروبة كلها
غضبى، على من ضل في احلاسه
هي تستعز بدينها وتسير في
اضوائه وتصد عن انكاسه

واذا كانت ثمة رؤيا فنية شاملة تقال، في معرض القراءة لقصائد محمد حسن فقي الاسلامية، فهي ان الطابع الرومانسي والفلسفي الذي يطبع سائر شعره، يكاد هنا يختفي، فالصياغة الفخمة، والكلمة ذات الرنين، تحل محل اللغة الهامسة، والصورة المجنحة. والرؤيا الواقعية تأتي هنا بديلا للرؤيا الخيالية. كما يميل الشاعر هنا الى الايقاع الثابت، فيلجأ الى القافية الموحدة، ويعرض عن الايقاع المنوع، الذي يتمثل في القافية المنوعة، وبالجملة فالتعبير أكثر مباشرة — الى حد النثرية احيانا — وليس ايحاء.

محمد حسن فقي ناثرا

مما لا شك فيه أن الشعر عند فقي هو العالم الأثير لديه، والأكثر بروزا وتميزا. وبالشعر كانت شهرته في الأدب السعودي الحديث. غير أنه عالج النثر ومارسه في شكل من اشكاله، وهو «المقالة»، والتي من أشهرها، طائفة من مقالاته، كان قد دأب على نشرها تحت عنوان ثابت، وهو «فيلسوف» ثم جمعها ونشرها في كتيب، صدر في سلسلة «المكتبة الصغيرة»، وذلك في عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

وهذا الكتيب، على صغره، يلقي ضوءا على أدب محمد حسن فقي بشكل عام، وشعره بشكل خاص، ولذا كان من المفيد، بعد أن نقف على نثر ذلك الأديب ان نربط بينه وبين شعره وشاعريته.

فمن عنوان الكتيب، يتضح المنزع الفلسفي لدى فقي، وهو، كما أمضينا القول، سمة جوهرية في شعره، ويمثل حوارا بين فيلسوف ومريديه، فالمريدون يطرحون مساءلاتهم، ويثيرون قضايا، والفيلسوف يجيب. فهو، بلا ريب، عمل فلسفي شكلا ومضمونا وعنوانا، كما أن الكتاب محرر بلغة رصينة، ويسوده تيار ذهني هاديء متأن، يمزج الحوار بنثار قصصي، يتمثل في محاولات التصوير والوصف ورسم الشخصية، والحركة مع الجمع بين السرد والحوار. يقول في معرض وصفه للفيلسوف: «.. وجاء يوم تمالك الشيخ فيه قوله، واستره صحته بعد فترة استجمام، كانت حافلة بالتأمل العميق والتسليم المذعن للقضاء، فقد كان الشيخ يرى أن من الحكمة هذا الاذعان المستسلم امام مشيئة القوة العليا المسيطرة على هذا الكون، بكل مايدب فيه من احياء، وما ينبث فيه من كائنات... واغتبط المريدون اغتباطا شديدا بعودة الشيخ الى حلقه وبتحلقهم حوله، كما تتحلق الهالة حول القمر، فيفيض عبها، وعلى الناس، من اشعاعه ما ينير امامهم السبيل..».

هكذا رسم الكاتب صورة الشيخ الفيلسوف، ليقدم لنا محاوراته ومجاوباته في مجلسه الحاشد بالمريدين، وهي صورة تستبطن اعماق الشخصية، ولا تقف عند استظهارها: زيا وهيئة. وهي، بعد، صورة مثالية رومانسية، ممعنة في المثالية، لانسان حكيم.

وهذه الصورة التي رسمها محمد حسن فقي، في نثره مجسدة لشتى الفضائل والمثل الانسانية، هي نفسها الصورة العامة التي تعشقها في شعره، وحاول، دائما ابدا، ان يضيفها على (الانسان الشاعر)، الذي امتدحه، وخلع عليه ثوبا من المثالية.

ويبدو ان فكرة «امتداح الشاعر والشاعرية» كانت المشرقية والمهجرية على سواء. فاذا رحنا نحاول استخلاص القضايا الفكرية، التي نثرها فقي، وعالجها في كتابه «فيلسوف»، وجدناها ممثلة في المحاور الآتية:

- العديد من ثنائيات الحياة والوجود، مثل:
  الخير والشر.
  الحق والباطل.
  العقل والحس.
  العلم والفلسفة.
- الشعور بالمسؤولية، نشأته ونموه ومصادره.
- العلاقة بين القدرة والشهرة.
- دستور الاسلام، وفلسفة اليونان.

على أن «مقالات فيلسوف»، أو لنقل «محاولات فيلسوف» تعكس لقارئها نزوع التساؤل والتأمل، لدى الأديب، محمد حسن فقي، كما انها نمط من الفيض العقلي، الذي يمزج بين الأدب والفلسفة، فيذكرنا بأنماط من النتاج الأدبي الفلسفي الذي نجده في تراثنا العربي القديم، لدى كل من الجاحظ في رسائله خاصة، وسائر نثره بشكل عام. كما تذكرنا، أيضا، بكتابات ابي حيان التوحيدي في «المقابسات»، وفي «الامتاع والمؤانسة»، وشتى رسائله.

ومن هنا تأتي أهمية مقالات محمد حسن فقي على قصرها ووجازتها، نمطا من الأدب الفلسفي، ومحاولة من الكاتب لاحياء، أدب المطارحات النثرية، في الفكر العربي المعاصر.

كما يعكس هذا النمط من الكتابة، الى جانب النزوع الفكري لدى الكاتب، ثقافته الفلسفية المتنوعة المشارب والشيات ☐



"إليها"

شعر: محمود عبد العزيز عامر / القاهرة

مع الأيام يدفعني هواها ... فاطمعُ أن أعيشَ وان أراها
وان احيا تُبادلني حنيني ... بحبٍ راحَ يغمره سناها
معطرة الثيابِ اذا تهادت ... تكاملت المفاتنُ في خُطاها
وذا عرش الجمالِ لها تدانى ... يتيهُ بحسنها عِزاً وجاها
لقيتُ بقلبها حباً تسامى ... ولن القاه في قلبٍ سواها
فكلّ جوارحي تهفو إليها ... اذا عزَّ المسيرُ الى حماها
فان سرتُ الهوينا في طريقي ... دعتني للتواصلِ مقلتاها
وان خفتُ الملامَة داعبتني ... بهمسٍ في عذوبتهِ صباها
ابيتُ الليلَ في فكرٍ وسهدٍ ... وكم يا ليلُ ارَّقني نواها
كفاني البعد يا ربي فإني ... جريحُ القلبِ يُسعدني لقاها
وها هي جنتي تزهو وتشدو ... وتخفي عن نواظِرنا هواها
وقفتُ ببابها حباً وشوقاً ... وسرتُ بظلّها أبغي شذاها

تنمية المصادر الطبيعية .. منهج وتطبيق

(٢)

بقلم: د. صالح علي الشمراني / جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كنت قد استعرضت عدة نقاط بارزة في القسم الأول من هذا البحث، ولعلي استعرض ما تبقى منها في هذا القسم واتطرق الى ما كان ينبغي أن اتطرق اليه سابقا، وبذا أكون قد وفيت الموضوع حقه.

المنهج الحديث لتنمية المصادر

يتميز هذا المنهج عن غيره من المناهج بأنه جامع شامل فهو يهدف الى دراسة الموارد الطبيعية دراسة علمية وتحليلية في ظل ظروف البيئة الطبيعية والبشرية. وبمعنى آخر، ان انصار هذا المنهج الحديث حينما يريدون دراسة أي مورد من الموارد الطبيعية لا بد وان تمر دراستهم هذه بمرحلتين:

دراستهم هذه بمرحلتين

- المرحلة الأولى: وفيها يقوم الباحث بدراسة الموارد دراسة جغرافية فيحدد مناطق التوزيع الجغرافي مستعينا في ذلك بخرائط التوزيعات الجغرافية ثم يدرس أثر عوامل البيئة الطبيعية والبشرية على ذلك المورد وخاصة فيما يتعلق بالانتاج الاقتصادي.

- المرحلة الثانية: وفيها يقدم الباحث دراسة تحليلية عن المورد الطبيعي فيما يتعلق بالجوانب التالية:

  - ادارة المورد وطرق الحفاظ عليه.
  - سياسة استغلال المورد.
  - الجوانب الاقتصادية للمورد.
  - طرق حماية البيئة من التلوث أثناء استغلال المورد.
  - أثر المورد على تنمية الاقليم الذي يوجد فيه.

ولتوضيح الجانب التطبيقي لهذا المنهج نورد مثالا من واقع الموارد الطبيعية المتجددة، وليكن الغابات في المملكة العربية السعودية.

ادارة المورد وطرق الحفاظ عليه

تشكل ادارة أو هيئة ذات دراية بالغابات من وزارة الزراعة وبعض المؤسسات الحكومية الأخرى ذات الاهتمامات بالموارد يتلخص دورها في الحفاظ على الغابات كمورد متجدد. ويمكن تلخيص الاهداف التي تسعى هذه الهيئة الى تحقيقها في الآتي:

- تحقيق أقصى انتاج مستمر.
- تحديد أعلى وأفضل استخدام للمورد.
- محاولة استخدام المورد لأغراض متعددة.
- الحفاظ على المورد.

ويمكن الحصول على انتاج عال دائم باتباع الخطوات التالية:

* قدم هذا البحث في اللقاء الجغرافي الثاني الذي عقد بقسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود بالرياض من ٣ — ٥ شعبان ١٤٠٥هـ.

— محاربة الآفات وامراض النبات.
— تقليم النبات.
— اعادة زراعة الغابات عن طريق غرس أشجار جديدة.
— مكافحة الحرائق التي تتعرض لها الغابات.
— تحديد الفترة الزمنية اللازمة للنمو.
— تحديد الاشجار التي يمكن قطعها.
— الحفاظ على التربة.
— اقامة السدود اللازمة للحفاظ على المياه في الغابة.

أما الهدف الثاني، وهو «الاستغلال الأمثل للمورد»، فيمكن تحقيقه عن طريق:

— تحديد الاولويات لمجموعة من الاستخدامات.
— ترشيد استغلال المورد بحيث تخصص الغابة للاستخدام الذي يعطي أعلى عائد.
— استغلال المورد استغلالا جيدا لكي يعطي عائدا أمثل للمستثمر بصفة خاصة وللمجتمع بصفة عامة.
— استغلال الموارد للاغراض التجارية والصناعية لكي يعطي اعلى عائد ممكن له.

ويمكن تحقيق الهدف الثالث «استخدام المورد لأغراض متعددة» عن طريق:

— تخصيص بعض اجزاء الغابة للسياحة.
— الحفاظ على الحيوانات البرية داخل الغابة وضمان مأوى لها فيها.
— استغلال الغابة كمصدر من مصادر الطاقة (الوقود).
— تحديد اجزاء من الغابة لتفي بأغراض صناعة الأثاث وبناء المنازل ونحو ذلك.
— أغراض أخرى.

أما الهدف الأخير، وهو «الحفاظ على المورد»، فيمكن تحقيقه عن طريق:

— استخدام المورد استخداما أمثل بدون هدر أو ضياع.
— الاحتفاظ بحقوق الأجيال القادمة عن طريق استخدام المورد في المستقبل.
— الحفاظ على نظافة البيئة الطبيعية وحمايتها من التلوث.

سياسة استغلال المورد

تقوم الهيئة الادارية بوضع سياسة خاصة لاستغلال المورد بحيث لا تتعارض هذه السياسة مع السياسة العليا للدولة بمعنى انه ينبغي على ادارة المورد ان تكون سياستها الرامية الى تنمية المورد تتمشى مع خطة التنمية في المملكة. ويمكن تلخيص سياسة استغلال المورد في النقاط التالية:

— ترشيد استغلال المورد عن طريق تحديد الاستخدام الأمثل للغابة.
— هل من الأفضل استغلال المورد الآن أو الاحتفاظ به للمستقبل؟
— هل يفضل استغلال المورد أم الاستيراد من الخارج؟
— ما هي الاغراض التي يمكن استغلال المورد فيها؟
 * سياحة.
 * مصدر للطاقة.
 * مصدر للأثاث وبناء المنازل.
 * اغراض أخرى.
— هل يفضل قطع الغابة واستخدام اراضيها لأغراض الزراعة!

طرق استغلال الموارد

١- في نظر البيئيين المتطرفين: Preservation
— لا تمس الموارد.
— تحفظ للاجيال القادمة.

٢- في نظر البيئيين المعتدلين: Conservation
— تستغل الموارد بحكمة.

٣- في نظر الاقتصاديين: Economically Feasible
— تستغل الموارد الى اقصى حد اذا كان هناك جدوى اقتصادية، وتستثمر عائداتها في مشاريع اقتصادية أخرى.

٤- في نظر الجغرافيين: Geographers
— الجغرافيون المتطرفون — لا تستغل.
— الجغرافيون المعتدلون — تستغل الموارد بقدر حاجة المجتمع اليها.
— الجغرافيون الاقتصاديون — تستغل الموارد الى اقصى حد اذا كان هناك جدوى اقتصادية وتستثمر عائداتها في مشاريع تخدم الاجيال الحاضرة والقادمة.

الجوانب الاقتصادية للمورد

يجب تحديد ما اذا كانت هناك جدوى اقتصادية من تنمية المورد أم لا؟ فاذا افترضنا أن هناك جدوى اقتصادية فما مقدارها؟ وبكم تستطيع أن تسهم في الدخل العام للدولة؟ والى جانب الجدوى الاقتصادية هناك جوانب اقتصادية أخرى تتعلق

بتنمية واستغلال المورد نوجزها في النقاط التالية:

— حجم تكاليف المشروع التنموي لهذا المورد.
— مدى اسهامه في الدخل القومي للدولة.
— كمية الانتاج المتوقعة ومدى تلبيتها لاحتياجات البلاد.
— كيفية اتمام عملية الانتاج، وعملية التصنيع، وكيفية نقله ومكان تسويقه.
— نوع التقنية المستخدمة في تنمية المورد، وتحديد دور اليد العاملة الوطنية في تكلفته.
— تحديد الاسعار ومقارنة نوعية الاخشاب المحلية مع نوعية الاخشاب المستوردة.

طرق حماية البيئة

ان استغلال المورد الطبيعي لا يصاحبه فقط نتائج ايجابية كزيادة الدخل القومي وتوفير فرص العمل لسكان الاقليم الذي يوجد فيه المورد وانما يصاحبه كذلك «نتائج سلبية» كتلوث البيئة، وتعرية التربة، وازعاج الناس، وتهجير الطيور والحيوانات البرية، التي اعتادت ان تتخذ من الغابة مأوى لها. لذا يجب الاحتياط لمثل هذه النتائج السلبية، التي قد لا تحمد عقباها في المستقبل، عن طريق:

- الحفاظ على التربة من التعرية.
- التقليل من نسبة التلوث في البيئة الى أدنى حد ممكن.
- حماية النباتات النادرة والحيوانات والطيور التي تعيش في الغابة.

وهنا لا بد من التفريق بين مصطلحين هامين لهما علاقة قوية بالبيئة وهما:

- قدرة او سعة الامتصاص، أي قدرة البيئة على استيعاب أو امتصاص التلوث الناتج عن المصانع والآلات المستخدمة في قطع الأخشاب وتصنيعها.
- قدرة أو سعة الاستيعاب، أي قدرة البيئة على التخلص من التلوث طبيعيا دون تدخل الانسان في ذلك. غير ان نسبة التلوث في البيئة قد تزيد احيانا على الحد الاعلى الذي يسمح به في الدولة مما يستلزم اتخاذ اجراءات فعالة للحد من تلوث البيئة نذكر منها:

فرض الضرائب والغرامات على المصالح والشركات المتسببة في تلوث البيئة.

— جمع التبرعات والمساعدات من المواطنين لتنقية وحماية البيئة من التلوث.
— وضع القوانين اللازمة لحماية البيئة من قبل الدولة.
— التحكم في نسبة التلوث والتنسيق مع الشركات والمصانع الحكومية المستثمرة للمورد.

الى جانب هذه الاجراءات المتعلقة بحماية البيئة من التلوث يمكن ايضا وضع قوانين لحماية بعض الأشجار النادرة أو تحول دون صيد الحيوانات والطيور كما توضع قوانين تفرض على الشركة المستثمرة للحفاظ على التربة من التعرية الى غير ذلك.

أثر المورد على تنمية الاقليم

تتركز الغابات في المملكة العربية السعودية في اقليم السراة، وتنمية هذا المورد الطبيعي في هذا الاقليم لا بد أن تصاحبه نتائج ايجابية وأخرى سلبية نوجزها في النقاط التالية:

النتائج الايجابية

— اتاحة فرص العمل لسكان هذا الاقليم.
— زيادة دخل سكان الاقليم بصفة خاصة والدخل القومي بصفة عامة.
— قيام نهضة صناعية واخرى تجارية عن طريق الاستثمار في تنمية المورد.
— تحسين الخدمات العامة كالتعليم والصحة والكهرباء ونحو ذلك.
— استقطاب سكان الاقليم الذين هاجروا الى المدن وحثهم على العودة الى الاقليم.
— ارتفاع اسعار المحاصيل الزراعية مما يشجع المزارعين على زيادة انتاجهم.

النتائج السلبية

— زيادة نسبة التلوث في البيئة.
— ازعاج الناس بالضجيج المتولد عن الآلات المستخدمة في قطع الاخشاب وتصنيعها.
— ازدياد تعرية التربة عن طريق فتح الطرق غير المعبدة.
— هجرة الحيوانات البرية والطيور من الغابة.
— زيادة الضغط على الخدمات العامة نظرا لزيادة عدد السكان.
— ارتفاع نسبة الحوادث في الاقليم.

وخلاصة القول

أولا: ان حقل تنمية الموارد يعتبر حقلا واسعا مما يستدعي الالمام بالمعرفة العامة في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والبشرية.

ثانيا: اننا هنا في المملكة العربية السعودية بحاجة ماسة الى معلومات وافية ودقيقة عن الموارد الطبيعية والبشرية فيما يتعلق بماهية وانواع وتوزيع الموارد الطبيعية والبشرية وطرق استغلالها والحفاظ عليها.

ثالثا: ان طبيعة الموارد الطبيعية من حيث ادارتها، وطرق الحفاظ عليها واستغلالها، تستلزم أن يكون الشخص المسؤول عنها ملما بجوانب المعرفة الطبيعية والبشرية، ويعتبر الجغرافي خير من يمثل هذا الشخص أدق تمثيل، لأن علم الجغرافيا يعتبر علما جامعا لكل فروع المعرفة.[١]

---

١ — الخشاب، والصحاف — ١٩٧٦م — ص/٢٢

طرق استغلال الموارد

هناك وجهات نظر متعددة فيما يتعلق بطرق استغلال الموارد الطبيعية نذكر منها على سبيل المثال الآراء التالية:

أولا: البيئيون المتطرفون، وهم يعارضون فكرة استغلال الموارد بالطرق المألوفة في وقتنا الحاضر، ولا يحبذون استخدام المبيدات الحشرية والمخصبات الكيميائية في التربة، أو مس حرية الحيوانات والطيور البرية. كما يعارضون اقامة السدود ومشاريع الري على الأنهار والاودية. غير انهم يفضلون بقاء الموارد في أماكنها والاحتفاظ بها للمستقبل البعيد حينما تدعو الحاجة الماسة اليها.

ثانيا: البيئيون المعتدلون، وهم ينادون باستغلال موارد الثروة على الوجه الأكمل دونما تبذير أو عبث أو اهمال من أجل اشباع تلبية احتياجات اكبر عدد ممكن من السكان لأطول فترة زمنية مع الاحتفاظ بحقوق الأجيال القادمة.

ثالثا: الاقتصاديون، وهم ينادون باستغلال الموارد الطبيعية الآن أو في المستقبل اذا كان هناك جدوى اقتصادية من استغلالها. وبمعنى آخر، فان الاقتصاديين دائما يسعون الى تحقيق أكبر قدر ممكن من الفائدة دون الاهتمام بالبيئة أو حقوق الاجيال القادمة.

رابعا: الجغرافيون، نظرا لاتساع علم الجغرافيا ومجالاته، وتعدد مصادر المعرفة التي يستقي الجغرافي منها خلفيته العلمية، فقد تعددت آراؤهم تجاه استغلال الموارد. فمنهم من يميل الى رأي الاقتصاديين، ومنهم من يناصر البيئيين. الا ان هناك حقيقة لا تقبل الجدل وهي ان الجغرافيين جميعا يهتمون بالتوزيع المكاني للموارد ويفسرون العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة، كما أنهم أول من يلفت انتباه الآخرين الى ايجاد الحلول اللازمة للمشاكل التي تعاني منها الموارد بصفة خاصة، والبيئة بصفة عامة.

نموذج لاستغلال الموارد

طور الدكتور «بارلو — Barlowe » من جامعة ولاية ميتشجن بالولايات المتحدة الامريكية، نموذجا حديثا يمكن الاستفادة منه عندما يريد الاشخاص او الحكومات تنمية مواردهم الطبيعية. ويتكون هذا النموذج من ثلاثة عناصر رئيسية هي:

— العنصر الطبيعي والبيولوجي.
— العنصر الاقتصادي.
— العنصر السياسي والاجتماعي.

العنصر الطبيعي والبيولوجي

يركز هذا العنصر على البيئة الطبيعية، والموارد الطبيعية والبشرية. فالعوامل الطبيعية والبيولوجية هي التي تمد الانسان بالمواد الخام اللازمة لسد احتياجاته واشباع رغباته، وهي التي تتحكم في كميات وانواع ودرجة جودة هذه الموارد. ولذا يجب ان تكون علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية ومواردها علاقة ايجابية.

وبمعنى آخر، ان السياسة الناجحة لتنمية الموارد يجب أن تكون ذات فعالية باستمرار.

العنصر الاقتصادي

يهتم هذا العنصر بالجوانب الاقتصادية للموارد، ومنها على سبيل المثال عوامل الانتاج، والسعر أو الثمن، وكمية الانتاج، وتكاليف الانتاج والنقل، والعائدات والارباح، والسوق وقرارات المستهلك، وتوزيع الارباح وأخيرا توزيع موارد الارض بين المستثمرين، وعلى مر الزمن. وخلاصة القول ان السياسة الناجحة لتنمية الموارد هي التي تبنى على وجود الجدوى الاقتصادية.

نموذج «Barlowe» المتعدد العناصر
شرط السياسة الناجحة لاستغلال المورد

العنصر الطبيعي والبيولوجي

— كون العوامل الطبيعية والبيولوجية ذات فعالية:

١- يجب أن تكون عناصر البيئة الطبيعية مناسبة (الجيولوجيا، التربة، الماء، المناخ، الهواء).
٢- يجب أن تكون الموارد الطبيعية والبيولوجية ملائمة (النبات، الحيوان، وغير ذلك).
٣- يجب أن تكون علاقة الانسان بالبيئة علاقة ايجابية (الحفاظ على البيئة).
٤- يجب أن تكون العمليات التي تبنى على مبادىء ايكولوجية سليمة.

العنصر الاقتصادي

— أن يكون هناك جدوى اقتصادية:

١- يجب أن يكون هناك علاقة مثمرة (ايجابية) بين العوامل الداخلة في الانتاج والمخرجات.
٢- يجب أن تكون الترتيبات المتعلقة بالتسويق والنقل ذات فعالية.
٣- التوازن المقبول للدخل والعائدات.

العنصر السياسي والاجتماعي

— عدم التعارض مع المؤسسات السياسية والاجتماعية.
— يجب أن تتوفر في السياسات والبرامج الشروط التالية:

١- عدم تعارضها مع القوانين والأنظمة العامة للدولة.
٢- ان تكون مقبولة سياسيا.
٣- أن لا تتعارض مع الاتجاهات والعقائد الحضارية والاجتماعية السائدة.
٤- امكانات تنفيذها وادارتها.

Source: Barlowe, 1978, P. 6

العنصر السياسي والاجتماعي

يركز هذا العنصر على عادات وتقاليد المجتمع وسياسة الدولة والقوانين التشريعية المعمول بها في البلد، لتنمية واستغلال الموارد، والتي لا تتعارض مع المتغيرات السياسية والاجتماعية للمجتمع.

وخلاصة القول ان السياسة والمشاريع التي يراد بها تنمية واستغلال الموارد الطبيعية يجب أن تكون ممكنة طبيعيا وبيولوجيا وان تكون ذات جدوى اقتصادية وان تكون مقبولة سياسيا واجتماعيا [٢]

الأهداف العامة من دراسة تنمية المصادر

- ترشيد استغلال الموارد الطبيعية على مر الزمن.
- الحفاظ على البيئة من التلوث والضرر حتى يتمكن الانسان من الحياة عليها بدون ضرر، والانتفاع بمعطياتها لسد احتياجاته.
- ايجاد الحلول المناسبة لبعض المشاكل التي تعاني منها البيئة في الوقت الحاضر مثل التلوث البيئي، وتعرية التربة، والتصحر...
- تشجيع البحث العلمي وايجاد المتخصصين الذين يمكن عن طريقهم الحفاظ على البيئة واستغلال الموارد بحكمة.

مجالات تنمية الموارد الطبيعية

هناك خمسة مجالات لدراسة تنمية الموارد وهي:

- ادارة الموارد الطبيعية.
- سياسة استغلال الموارد الطبيعية.
- اقتصاد الموارد الطبيعية.
- طرق الحفاظ على البيئة.
- تنمية المجتمعات والاقاليم.

ادارة الموارد الطبيعية

وتهدف الى تحديد الاستغلال الأمثل للموارد كالاراضي والمياه والمعادن ومصادر الطاقة، كما تركز على تقييم البيئة والموارد وتصنيف الموارد وتحليلها. وأخيرا طرق الحفاظ عليها. ويستمد هذا الفرع جذوره من كل من الجغرافيا الطبيعية، الهيدرولوجي (علم المياه) والتربة. ويمكن اختيار المواد التالية لتمثل مفردات البرنامج الجامعي وما فوقه في ادارة المصادر الطبيعية:

- طرق الحفاظ على البيئة.
- تنمية مصادر المياه.
- ادارة المصادر الطبيعية.
- طرق استخدام الاراضي.
- طرق الحفاظ على التربة.
- طرق البحث العلمي في ادارة الموارد.
- ادارة مشاريع التنمية.

سياسة استغلال الموارد

وتهدف الى تحديد السياسة التي يجب اتباعها لاستغلال الموارد كل على حدة، والتركيز على العوامل السياسية والاجتماعية التي تؤثر بطرق مباشرة او غير مباشرة على تنمية الموارد واستغلالها، وتحديد السياسة المتبعة في توزيع عائدات الموارد.

ولعل من أهم الحقول ذات العلاقة بهذا الحقل العلوم السياسية والقانون. وأهم مفردات البرنامج التي تخدم هذا المجال هي:

- سياسة استغلال الموارد.
- تاريخ سياسة استغلال الموارد.
- منظمة الأوبك وسياسة استغلال النفط.
- سياسة استغلال الموارد البحرية العالمية.
- التنمية الزراعية وسياسة الاكتفاء الذاتي.

اقتصاد الموارد الطبيعية

ويركز هذا الحقل على الانتاج والتوزيع واستغلال وتقييم السلع والخدمات ذات العلاقة بالموارد الطبيعية، كما يركز على السياسة الاقتصادية للموارد. وبمعنى آخر، فان اقتصاد الموارد يهدف الى استخدام الأساليب والطرق الاقتصادية الحديثة في تحليل الموارد وترشيد استغلالها. ولعل من أهم العلوم التي لها علاقة بهذا الحقل علم الاقتصاد، والاقتصاد الزراعي، والرياضيات والاحصاء. وأهم مفردات البرنامج الذي يمكن تطبيقه على هذا الحقل هي:

- اقتصاد الاراضي.
- اقتصاد الموارد الطبيعية.
- اقتصاد الاقاليم.
- اقتصاد الموارد السياحية.
- اقتصاد الطاقة.
- التنمية الاقتصادية.

طرق الحفاظ على البيئة

ويركز هذا الفرع على المفاهيم الرئيسية ذات العلاقة بالبيئة وطرق حمايتها من التلوث والضرر عن طريق الاستفادة من القوانين والتشريعات التي عن طريقها يمكن ترشيد الانسان وتوجيهه الى اتباع افضل الطرق فيما يتعلق بالحفاظ على البيئة وصيانتها وطرق استغلال مواردها الطبيعية. ومن أهم الحقول التي لها علاقة بهذا الفرع، الصحة، والقانون، والعلوم السياسية والادارة العامة. أما أهم المفردات التي يمكن ادراجها في برنامج هذا الحقل فهي:

٢ــ Barlowe, 1987, P. 7

* طرق الحفاظ على البيئة.
* قانون المصادر الطبيعية.
* قانون المصادر المائية.
* القانون والتغير الاجتماعي.

تنمية الأقاليم

ويركز هذا الحقل على دراسة الاقاليم من حيث تصنيفها وتوزيعها وسكانها ومواردها وتنميتها. وفيما يتعلق بالمجتمعات السكانية للاقاليم فان هذا الحقل يركز على بعض المفاهيم ذات العلاقة بالتغير الاجتماعي ومدى اسهام المواطنين في عملية التنمية وكيفية اتخاذ القرار بما يكفل لهم حياة كريمة. كما يستفاد من المفاهيم والنماذج الاقتصادية في توجيه دفة التنمية الاقليمية. والحقول التي لها علاقة مباشرة بهذا الفرع هي الجغرافيا الاقليمية، وعلم الاجتماع، والخدمة الاجتماعية، والاقتصاد، والتعليم، والصحة وعلم الاقاليم. وأهم الموارد التي يمكن أن تخدم هذا المجال هي:

* الاقتصاد الاقليمي.
* التخطيط الاقليمي.
* التنمية الاقليمية.
* تنمية الموارد البشرية في الاقاليم.
* الاساليب العلمية لدراسة الاقاليم.

كما نقترح التركيز على الدراسات العليا المتقدمة على كل من المواضيع التالية:

أولا: مشاكل في الموارد الطبيعية

والمفردات الدراسية التالية يمكن أن تخدم هذا المجال:

* مشاكل تلوث البيئة.
* مشاكل تعرية التربة.
* نمو المدن على حساب الأراضي الزراعية.
* تناقص كميات الغذاء في العالم.
* مشاكل الطاقة.
* مشكلة نقص المياه والتغذية.
* التصحر وأسبابه.
* ندرة الموارد الطبيعية.
* التضاد في استخدامات الاراضي.

ثانياً: قراءات متقدمة في تنمية الموارد الطبيعية

* استخدامات الاراضي.
* ادارة المصادر الطبيعية.
* سياسة استغلال الموارد الطبيعية.
* تنمية المصادر الاقليمية العالمية.
* المصادر البحرية وطرق استغلالها.
* الاستشعار من بعد في دراسة الموارد.

ثالثاً: مواضيع خاصة

* اثر البترول على التنمية في المملكة.
* مستقبل الطاقة في المملكة.
* التنمية الزراعية في المملكة.
* تنمية الموارد السياحية في المملكة.
* الموارد المائية وترشيد استغلالها في المملكة.

خلاصة البحث

نظرا لاتساع مجال تنمية الموارد الطبيعية فقد تعددت مناهج البحث فيها، واذا ما أمعنا النظر في هذه المناهج، فاننا سنجد أوجه اختلاف كبيرة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

* اهتم المنهج الجغرافي بدراسة التوزيع المكاني للموارد الطبيعية والعوامل المؤثرة في ذلك.
* اهتم المنهج الاقتصادي بدراسة الجوانب الاقتصادية للموارد دون غيرها.
* اهتم المنهج السياسي بدراسة القوانين والسياسات اللازمة لترشيد استغلال الموارد والحفاظ على البيئة.
* اهتم المنهج الحديث لتنمية الموارد بدراسة الموارد الطبيعية دراسة شاملة تتلخص في النقاط التالية:
  — دراسة التوزيع المكاني للموارد.
  — ادارة الموارد وطرق الحفاظ على البيئة.
  — ترشيد استغلال الموارد.
  — تحديد الجدوى الاقتصادية من تنمية الموارد الطبيعية.
  — أثر الموارد على التنمية الاقليمية بصفة خاصة وعلى التنمية في البلد بصفة عامة.

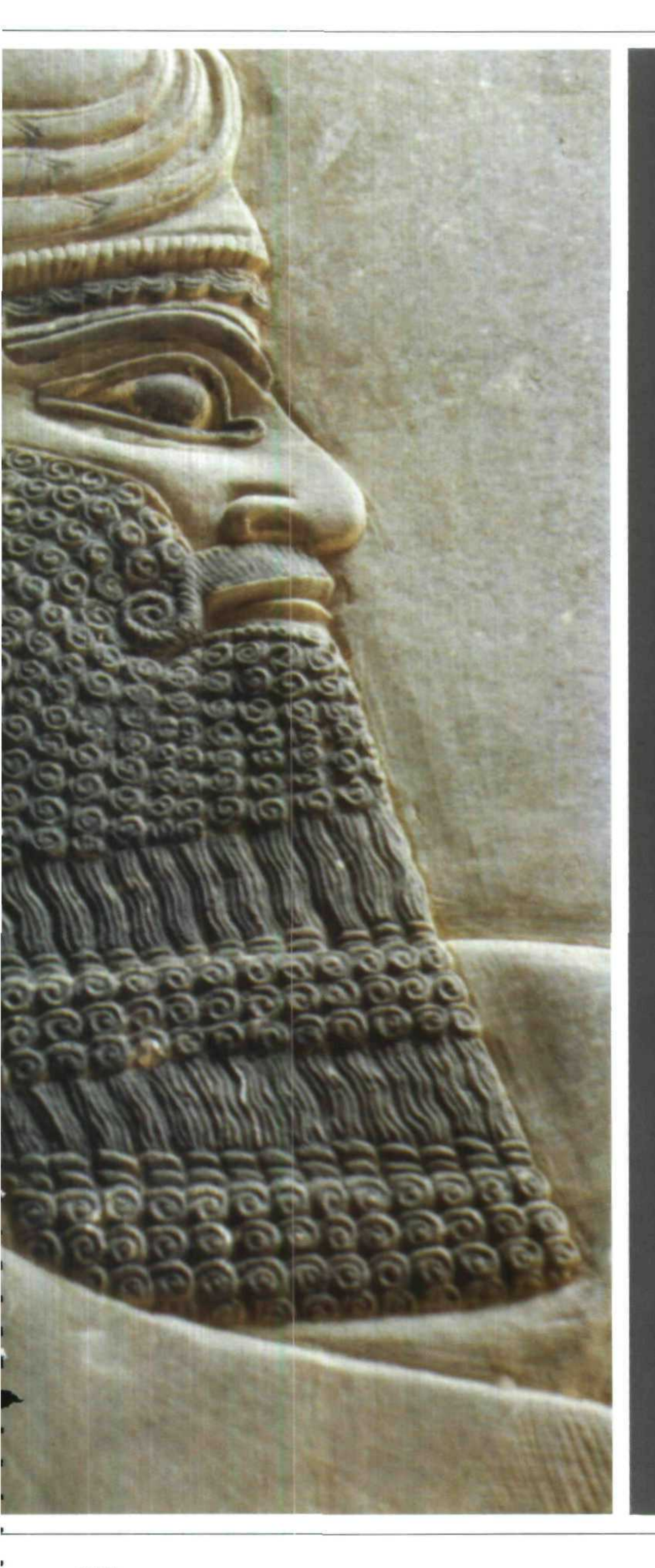
ويمكن القول بأن نموذج «بارلو — Barlowe» المتعدد العناصر يعتبر أفضل النماذج التي يمكن الاستعانة بها عند استغلال أي مورد من موارد الارض. فقد وجد أن الخطة الناجحة لترشيد المصادر هي التي تأخذ في الاعتبار في آن كل عناصر البيئة الطبيعية والبيولوجية، والاقتصادية، والسياسية والاجتماعية.

أما فيما يتعلق بالبرنامج الجامعي المقترح لتنمية الموارد الطبيعية والبشرية فيجب أن يركز على المجالات الآتية:

* ادارة الموارد الطبيعية.
* سياسة استغلال الموارد.
* اقتصاد المصادر الطبيعية.
* تنمية الاقاليم والمجتمعات البشرية.
* الحفاظ على البيئة.

وقد اقترح الباحث بعض المفردات (المواد) الدراسية التي يمكن تدريسها في كل حقل لطلاب الدراسات الجامعية والعليا، وهي قابلة للمناقشة والتعديل والتحسين.

كما أن الباحث لا يرى من هذا البحث الا محاولة بسيطة للتعريف ببعض الجوانب المتعلقة بتنمية الموارد الطبيعية هذا من ناحية، ومحاولة الاستزادة من العلم والمعرفة من ناحية أخرى □



كنوز أثرية نفيسة في أرض الرافدين

سليمان نصر الله / هيئة التحرير

على ضفاف نهري دجلة والفرات قامت أزهى الحضارات القديمة، إذ تعاقبت على هذه البقعة ذات المياه الوفيرة والأرض الخصبة أقوام عديدة، خلفت وراءها تراثاً أثرياً وفنياً وفكرياً عريقاً، يعكس ما بلغته تلك الأقوام من مستوى حضاري رفيع. ولا يزال هذا التراث موضع اهتمام علماء الآثار والباحثين والمؤرخين من جميع أنحاء العالم للكشف عن كنوزه الدفينة واستكناه أسراره.

نقش لوجه آشوري.





يجري حاليا اعادة بناء مدينة بابل، وهذا جدار مزدان بحيوان مجنح.





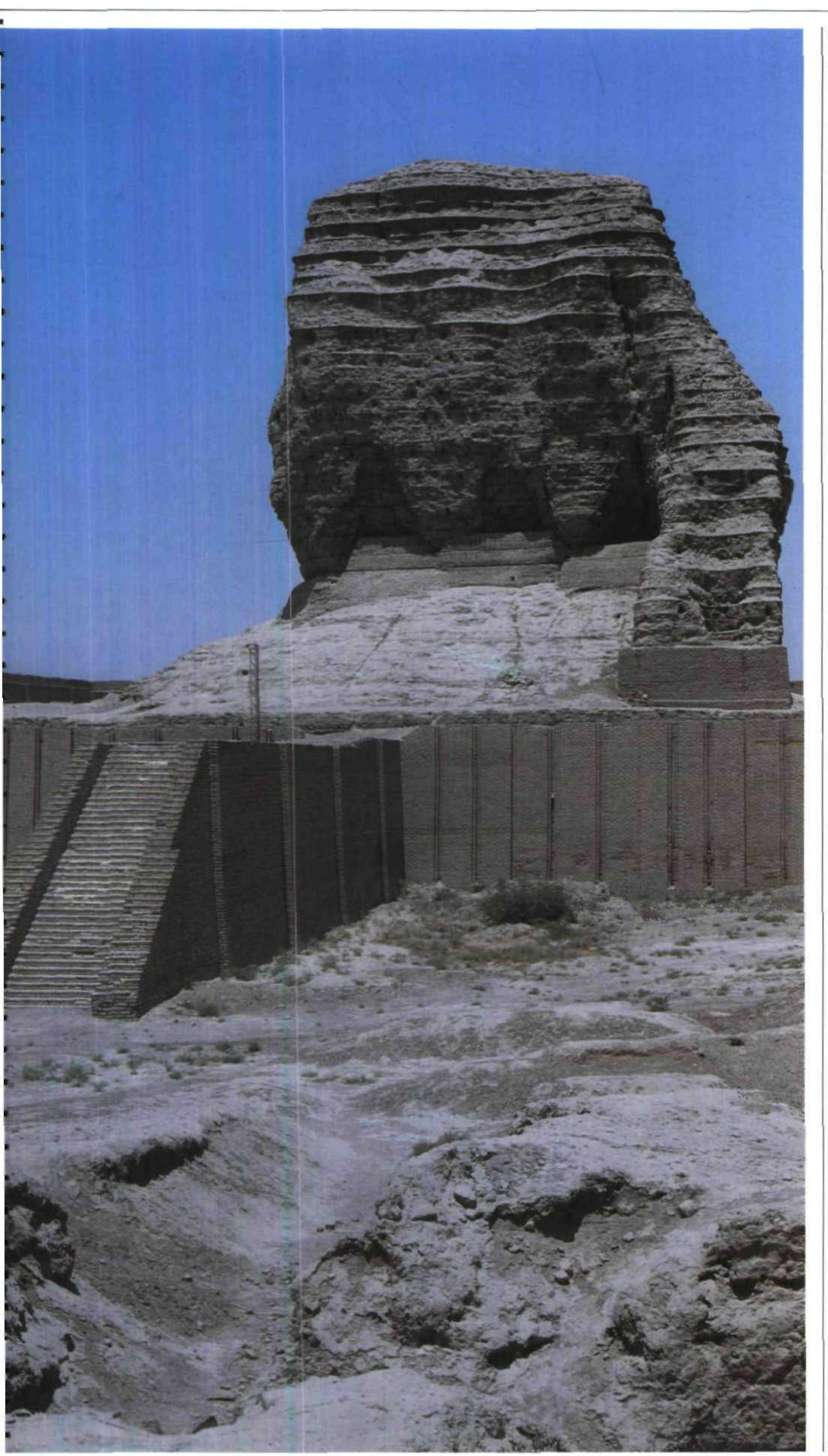
لوحات من الصلصال عليها كتابة اسفينية.

كلما ورد ذكر أرض ما بين النهرين، دجلة والفرات، قفز الى الأذهان أخبار تلك الحضارات الغابرة، التي تعاقبت على هذه الأرض منذ فجر التاريخ وتركت آثارها مبعثرة في تلك البقاع. هذه الآثار لا تزال تجد بين المؤرخين وعلماء الآثار من يتوق الى كشف المزيد منها، واستقراء كنوزها. ولا يقتصر أمر تلك الحضارات على تلك الفئة من الناس، بل هناك الكتاب الروائيون الذين اجتذبتهم تلك الحضارات، فراحوا يؤلفون عنها الروايات والقصص، أمثال الروائية البريطانية «أجاثا كريستي»، التي اتحفتنا بروايتها المشهورة «وجاءوا الى بغداد»، التي كان لها صدى كبير في الاوساط الأدبية. أضف الى ذلك أنها كانت بمثابة دعوة مفتوحة لزيارة هذه البقعة من الوطن العربي الزاخرة بالآثار والتراث العريق. فهذه البقعة الخصبة التي يجري فيها نهرا دجلة والفرات عرفت أقدم الحضارات في العالم. وقد تركزت الحياة في البداية عند الطرف الجنوبي، حيث أنشأ السومريون حوالي ٣٢٠٠ ق.م. مدنا مستقلة أشهرها اور، وأورُك، وأومَّا، ولاغاش، ولارسا، وماري. وكانت كل مدينة في المرحلة الأولى من تاريخ السومريين كناية عن دولة. وفي المرحلة الثانية من تاريخ السومريين، قُيض لمدينة «أومَّا» ملك قوي اسمه «لوغال زاغيزي» استطاع أن يوحد هذه المدن في دولة واحدة عاصمتها «اورك». وفاخر هذا الملك ببسط نفوذه من «البحر الأدنى» اي الخليج العربي الى «البحر الأعلى» أي البحر الأبيض المتوسط.

لقد اشتهر السومريون المؤسسون لحضارات ما بين النهرين، بالكتابة الاسفينية، التي استطاع علماء الآثار من خلالها الوقوف على كثير من الحقائق التاريخية لحضارات العراق القديمة. كما برعوا في فن النحت، والحفر والتطعيم بالعاج على الواح من الحمَّر، واتقنوا صناعة الخزف كنتيجة حتمية لصناعة الآجر، وعنهم أخذت الشعوب السامية التي حلت محلهم فيما بعد. ورغم افتقار جنوب العراق الى الحجارة، حيث استقر السومريون، فقد لجأ الفنانون السومريون الى صنع تماثيلهم من الطين المحروق، وغلفوها بالمعادن الثمينة. واهتم الفنان السومري بابراز معالم وجه التمثال وتقاسيمه ليكون مطابقا لأوصاف صاحبه. وقد عثر على كثير من هذه التماثيل السومرية في أماكن متفرقة في جنوب العراق. ثم توالت على ارض الرافدين الهجرات السامية نظرا لخصوبتها، فجاء الاكاديون، والبابليون، والاشوريون، والكلدانيون، وبنوا أزهى الحضارات التي عرفها التاريخ، وكان من أبرز عناصرها العمارة، والنحت، والنقش، والكتابة، والأدب، والعلوم، والطب، والهندسة. وقد انعكس فن العمارة على المقابر، والمعابد، والقصور، التي اندثر الكثير منها بسبب الفيضانات المتعاقبة، ولعل «الزقورات» الباقية خير دليل على ما بلغته تلك الاقوام من رقي معماري، وهندسي، وعلمي. و«الزقورات» أماكن ضخمة كانت تؤدى فيها الطقوس الدينية. أشهرها «برج بابل» بجنائنه المعلقة، التي تأخذ شكل تلة، في أسفلها أعمدة ضخمة تحمل فوقها قناطر، وهذه بدورها تحمل مدرجات مغروسة بالأشجار والزهور، تتخللها ادراج عديدة يسلكها المتنزهون. اما النحت فقد تجلى في التماثيل رغم افتقار جنوب بلاد الرافدين الى الحجارة، فالاشوريون مثلا جسدوا في نماذجهم كل ما يمثل القوة، كالأسد والثيران المجنحة واللبؤة الجريح، فالفنان كان يبرز تفاصيل الوجه والعضلات المفتولة لدلالتها على القوة، بينما يستر بقية الجسم برداء فضفاض.

أما في مجال الفكر والأدب، فقد خلفت شعوب بلاد ما بين النهرين الكثير من الآثار الفكرية الرائعة، وحفظ معظمها في مكتبة «اشور بانيبال». وتعكس هذه الآثار الفكرية تقدم تلك الشعوب في العلوم الى درجة عالية، حتى اننا لا نزال الى اليوم نقرها في حياتنا اليومية. وقد عبرت تلك الشعوب عن آدابها بالعديد من الاساطير والملاحم. وكانت اداة تدوين تلك الآداب والعلوم الكتابة المسمارية، التي وضع اسسها الاولية السومريون، ثم طورها الاكاديون، فأضحت أيسر استعمالا وأوفى اداء. وبدأت الكتابة لدى السومريين من اليمين الى الشمال كما تكتب اللغة العربية، ومن أعلى الى أسفل كما تكتب اللغة الصينية. بيد أنها اثر التطور الذي لحقها راحت تكتب افقيا من الشمال الى اليمين على الواح الدلغان الطرية التي تجفف في الشمس او تشوى على النار حتى تقسو. وقد احتوت مكتبة الملك «اشور بانيبال» الضخمة على آلاف الالواح الدلغانية المحفوظة ضمن أغلفة من الدلغان أيضا. وكانت تلك الألواح المصدر الرئيسي الذي استطاع العلماء من خلاله الوقوف على حضارة تلك الشعوب القديمة وتاريخها الحافل. ومن تلك الألواح، عرفنا اطول الملاحم البابلية المشهورة، وهي ملحمة «جلجاميش — Gilgamesh» التي تتضمن مقاطع عن قصة الطوفان ايام نوح، عليه السلام. وقد عثر عليها في مكتبة «اشور بانيبال» وطبعت على ١٢ لوحا من الآجر، ورويت بلغات سامية مختلفة، مع أن أصلها سومري. وتزعم هذه الاسطورة أن الإله «ايا» نقل الى «اوتنبشتم» تصميم الآلهة على انزال الطوفان على الأرض، فاحتاط للأمر وهدم كوخه ليبني سفينة. وقد ترجم الدكتور أنيس فريحة هذه الملحمة فنقل منها مقاطع تسرد أحداث ملحمة الطوفان على لسان بطلها اذ يقول: «في اليوم الأول بنيت هيكلها، أنشأت فيها ست طبقات سفلية. وضعت فيها كل ما أملكه.

وكما نعلم فقد ورد ذكر قصة الطوفان في القرآن

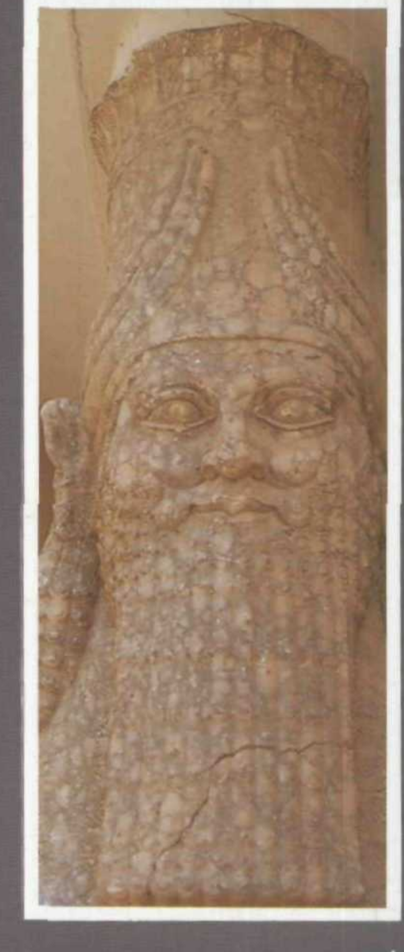


الكريم حيث يقول جل وعلا في سورة هود:

﴿وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ۝ وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ۝ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ۝ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم. حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم ۝ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ۝ قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ۝ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعدا للقوم الظالمين﴾.

ونعود الى تلك الحضارات المزدهرة في أرض الرافدين لنقف على ما خلف أولئك القوم في ارجاء العراق. لم نكن نعرف سوى القليل عن تلك الحضارات حتى أوائل القرن التاسع عشر. في اوائل القرن الماضي، اخذ الاهتمام بهذه المنطقة يزداد يوما بعد يوم، فقامت سلسلة من بعثات الآثار الى شمال العراق في بادىء الأمر، وكشفت النقاب عن آثار الامبراطورية الآشورية القديمة، ومن ثم اميط اللثام عن كنوز عالم زاخر. وكان من بين من اضطلعوا بهذه الكشوف الاثرية «بول بوتا — Paul Botta » الفرنسي، و«هنري لايارد — Henry Layard » الانجليزي، و«كولديوي Koldewey » و«اندراي — Andrae » الالمانيان.

كان «بوتا» يشغل منصب القنصل الفرنسي في مدينة الموصل، وكانت لديه رغبة ملحة في كشف النقاب عن الحضارة الآشورية القديمة بوجه عام والعثور على مدينة «نينوى» عاصمة الامبراطورية الآشورية بوجه خاص. وباشر أعمال الحفر عام ١٨٤٢م، بيد أن النتائج الأولية كانت مثبطة. وذات يوم جاءه رجل عربي ليشير عليه بالحفر في موقع آخر. وراح «بوتا» وعماله يحفرون في الموقع الجديد، فوجدوا حائطا مكسوا بألواح من الحجر المنقوش. ولم يمض عليهم وقت طويل حتى اكتشفوا غرفا وأبهاء وأروقة، كانت تؤلف جزءا من قصر فخم. لقد تملك بوتا الفرح والنشوة لاعتقاده انه وجد مدينة نينوى، الا انه في الحقيقة كشف النقاب عن قصر «سرجون الثاني»، الذي حكم آشور من عام ٧٢٢ الى عام ٧٠٥ ق.م. ويقوم القصر في مدينة دورشاروكيم، وهي المدينة التي شيدها سرجون الثاني على بعد حوالي ١٢ ميلا شمال



رأس لثور مجنح في مدينة نينوى جرى نحته حديثا.

اطلال في «عقرقوف» في ضواحي مدينة بغداد.

مدينة نينوى. ويشتمل القصر على ٢٠٠ حجرة شامخة بنيت حول افنية واسعة، وكانت الحيطان الداخلية تزدان بنقوش بارزة مجسمة، تصور ملوكا وآلهة وجنودا يقاتلون أو يتعبدون. ويقوم على حراسة ابواب القصر تماثيل لأسود ضخمة مجنحة وثيران لها رؤوس آدمية. والجدير بالذكر أن «بوتا» أرسل بعض التماثيل والنقوش الى فرنسا، حيث يمكن مشاهدتها اليوم في متحف «اللوفر» بباريس.

وفي أواخر عام ١٨٤٥م، أثناء قيام «بوتا» بأعمال التنقيب والاستكشاف، وفد على العراق الشاب الانكليزي «هنري لايارد» وراح ينقب في ربوة «النمرود» التي رأى انها أفضل موقع يبشر بنتائج مرموقة. وسرعان ما اكتشف غرفا مكسوة بألواح من المرمر تغطيها كتابات مسمارية ونقوش بارزة مجسمة رائعة الجمال تمثل رجالا يقاتلون، ويصيدون الأسود، ويركبون المركبات ذات العجلتين، ويهاجمون الحصون بالمجانيق، ويتسلمون الجزية من الأعداء المقهورين، بالاضافة الى أسد وثور ضخمين مجنحين، لكل منهما رأس على هيئة رأس انسان، يحرسان مدخل احد القصور الملكية الثلاثة، التي شيدها الملك «آشور ناسيبيال» الثاني. وقام «لايارد»، كزميله الفرنسي «بوتا»، بارسال التمثالين الضخمين للأسد والثور الى انجلترا، فحملها على أطواف في رحلة طويلة عبر نهر دجلة الى مدينة البصرة، ثم نقلها بسفينة الى انجلترا، ويمكن مشاهدة هذين التمثالين الآن في المتحف البريطاني. وبعد ربوة النمرود، بدأ «لايارد» الحفر في ربوة عند «كويونجيك» عام ١٨٤٩م، وكان «بوتا» قد تخلى عنها قبل ذلك بسنوات. وبعد جهود مضنية عثر «لايارد» أخيرا على مدينة «نينوى» التي كانت حلم علماء الآثار. فقد أسفر الحفر والتنقيب عن تسع غرف في قصر ملك آشور «سنحاريب» الذي اتخذ من مدينة «نينوى» عاصمة لملكه ابان ازدهار آشور بين عامي ٧٠٥ و٦٨١ق.م. وراحت أعمال التنقيب تميط اللثام عن كنوز أثرية أخرى. فتم اكتشاف ابدع فنون العمارة والنقوش في الحضارة الاشورية. حيث عثر على نقوش مجسمة ضخمة من المرمر الملون لمعارك حربية، وحصون، وسفن، ومحاربين ملتحمين، ورماة اقواس، وفرسان يطاردون اعداء مذعورين، وملوك في المركبات الفخمة ذات العجلتين، تعلو رؤوسهم المظلات وهم يتقدمون على امتداد انهار تتسامق على ضفافها أشجار النخيل وتمتلىء بالأسماك، ونساء واطفال يساقون كرقيق، وأسود مطعونة بالحراب تثب على صياديها من فرط الالم والاهتياج.

هـذه القصـور، والنقـوش، والاسود والثيران المجنحـة التي تـم اكتشافهـا، لا تقارن بالمكتبة الملكية للملك «آشور بانيبال» حفيد سنحاريب، التي تم العثور عليها فيما بعد، فهي تفوقها جميعا من الناحية الاثرية. فقد عثر على آلاف من الواح الصلصال والاسطوانات نقشت بالكتابة المسمارية التي حلت رموزها عام ١٨٥٧م، فتمكن علماء الآثار من قراءة الكتابة البابلية والآشورية، ومن ثم وقفوا على تاريخ حضارات العراق. ولقد كان لمكتبة الملك «آشوربانيبال» الفضل الأكبر فيما وصل الينا من معرفة واسعة عن الامبراطورية الآشورية. اذ حفظت لنا آلاف الالواح من الطين الخزفي المحروق، التي تروي ليس فقط الاحداث التي جرت في عهد الملك «آشور بانيبال» (٦٦٩ــ٦٢٦ق.م.) بل جميع ما كانت تحفل به الحياة اليومية لأهالي نينوى العاديين وديانتهم وآدابهم. ونقرأ في أحد هذه الالواح وصفا لانتصار الملك «آشور بانيبال» على العيلاميين يقول: «في خلال شهر واحد وخمسة وعشرين يوما من الزحف، دمرت وخربت اقاليم عيلام. هناك نثرت ملحا وشوكا وجعلت الارض قفرا تالفة غير ذات زرع. ان اولاد الملك واخوان الملك واعضاء الاسرة الملكية لعيلام، الصغار منهم والكبار، والولاة، والحكام، والنبلاء، والفرسان، والصناع المهرة على كثرتهم، والبالغين، والأطفال، والجياد، والبغال، والحمير، والقطعان، والدواب، والماشية، وهم اكثر عددا من سرب من الجراد.. كل أولئك أخذتهم كغنائم وادخلتهم بلدي».

وعلى الرغم من الحملات الحربية التي كان الملك «آشور بانيبال» منهمكا في تدبيرها، فقد كرس بعض الوقت للأدب والعلم والثقافة. لقد كان مسؤولا عن البحوث العلمية المستفيضة التي كان يعدها رجال العلم الآشوريون عن الآثار البابلية القديمة التي سجلت لنا كثيرا من التفاصيل القيمة. وقد جمع العدد الكبير من الألواح الخزفية التي رتبت وصنفت بدقة، متضمنة بيانات تاريخية وملاحظات تتعلق بالفلك، وكلمات للآلهة، وتكهنات، وطقوسا، وأناشيد، وأساطير عن الانسان في التاريخ القديم، منها قصة الطوفان. وكان الملك «آشور بانيبال» من هواة المطالعة والمناقشات مع المثقفين، الذين كانوا يباشرون العمل في المكتبة. ونقرأ للملك نفسه ما كتبه في هذا الصدد: «لقد تعلمت أسرار فن الكتابة على الالواح، وهو فن نفيس كالكنز. أني أفهم فأل الخير والشر في السماء وفي الأرض. اني اجادل في المعاني التي يسوقها أهل العلم.. واعرف كيف احل المسائل الصعبة في القسمة والضرب. واعرف كيف أقرأ النصوص المكتوبة في اللغة السومرية، وقد فحصت ما هو مكتوب على الحجارة في عهد الطوفان الذي عم الكون». وفي عام ١٩٠٣، قام الالمانيان «كولديوي» و«آندراي» بالتنقيب عن مدينة «آشور» عاصمة الآشوريين القديمة قبل نينوى، واكتشفا قصورا ومعابد، وعدداً كبيراً من القبور التي كانت تحتوي على اوان خزفية وقدور والواح من الصلصال. والجدير بالذكر أن الامبراطورية الآشورية قامت في شمال العراق في

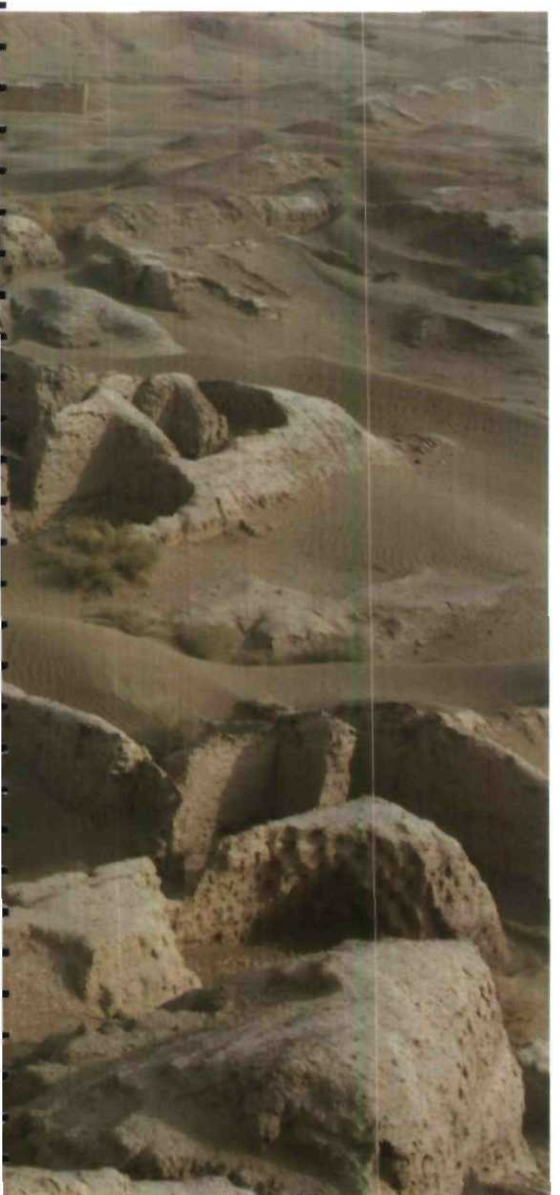
منطقة جبلية تحتوي على الحجر والمرمر التي استعملها الآشوريون في البناء، ولهذا استطاع الآشوريون في مجال فنون العمارة والنقوش أن يخلدوا آثارهم التي بقيت آلاف السنين. اما البابليون فلم يستطيعوا أن يخلدوا آثارهم لخلو منطقتهم من الحجارة، وعليه فان جزءا لا يستهان به من روعة الفن المعماري لدى آشور القديمة ما زال باقيا حتى اليوم سليما، في حين أن الواح الآجر التي تسلطت عليها شمس بابل تفتتت منذ زمن طويل واستحالت الى تراب. ومع ذلك فلم يتوان علماء الآثار في التنقيب عن مدينة بابل الاسطورية، عاصمة ثانية اقدم حضارة على الارض. لم يكن يعرف عن هذه المدينة المندثرة الا القليل حتى عام ١٨٩٩م، حينما بدأت بعثة آثار المانية تحت اشراف الدكتور «كولديوي» بأعمال الحفر والتنقيب النهائية في بابل على نهر الفرات. بيد أن هذه المهمة الضخمة قد تعثرت عام ١٩١٤م بسبب الحرب العالمية الأولى. ولكن التخطيط العام للمدينة كان قد تم الكشف عنه بأكمله حينذاك، وأمكن تحديد مواضع الاسوار المحصنة، والبوابات، وطريق الموكب، والمباني الرئيسية. ولم يبق من مدينة بابل الاسطورية اليوم سوى اطلال تشهد على عراقتها. فنحن لا نزال نتذكر أن حدائق بابل المعلقة كانت احدى العجائب السبع في العالم القديم. واليوم وبفضل جهود العلماء، لا سيما علماء الآثار، الذين اهتدوا الى مفتاح اللغة البابلية، امكن رسم صورة لما كانت عليه بابل في أوج حضارتها حوالي عام ٥٦٥ ق.م. ويتخيلها احد كتاب الخيال العلمي بناء على الكشوف الأثرية فيصفها قائلا: اذا ما اقترب المسافر من بابل عن طريق السهل، تصافح عيناه أول ما تصافح السقف الذهبي لبرج ضخم يتلألأ في الشمس. ثم لا يلبث ان تتبدى له الأسوار الضخمة التي تطوق المدينة. لقد كانت هذه الاسوار من العرض بحيث تسير فوقها مركبة ذات عجلتين تجرها اربعة جياد. وكان يشق المدينة من الشمال الى الجنوب طريق الموكب أو طريق النصر. في كل عام كان يقوم في بابل مهرجان العام الجديد، احتفالا بزواج الاله «مردوك» من آلهة الأرض، لكي تمنح الخصب للتربة، وتجود بمحصولات طيبة من القمح والكرم والزيتون. وكان الملك، والكهنة، وتماثيل الآلهة في المركبات الرسمية على هيئة القوارب والمزدانه بالذهب واللازورد، يمرون على امتداد طريق الموكب، الذي كان يرتفع نحو ١٢متراً فوق مستوى السهل، وكان يكسوه بلاط من الرخام. وكان الطريق بعرض ٢٤ متراً، تحف به من الجانبين اسوار عالية مكسوة بالقرميد المزجج بالوان زاهية براقة، مزدانة بافاريز تضم صور اسود شرسة، وثيران، وتنانين، يقصد منها تخويف الشر وابعاده عن المدينة. وعلى الجانب السفلي من كل بلاطة رصفت بها الأرض، نقشت هذه العبارة: «انا نبوخذ نصر، ملك بابل، انني رصفت طريق بابل بالأحجار، من أجل موكب الاله الكبير مردوك. يا الهي مردوك امنحنا الحياة الأبدية» وكان طريق الموكب يمر من خلال بوابة «عشتار»، آلهة الحرب والحب لدى سكان بلاد ما بين النهرين، ذات المدخل المزدوج والابراج الهائلة. وهذا المدخل المزدوج كان مكسوا بطبقة ملساء زرقاء براقة، مزدانة بتسعة صفوف من التنانين والثيران. واذا تابع المسافر طريق موكب العام الجديد من خلال بوابة عشتار، وجد نفسه في المدينة الداخلية. وفيها كانت توجد قصور ومعابد فخمة، كما كانت توجد شوارع ضيقة تقوم عليها بيوت مسطحة الأسقف من قرميد أصفر وارضيتها مبنية بالقرميد. وهنا كان يقوم مقر الملك «نبوخذ نصر» بساحاته الواسعة، وقاعة العرش الفسيحة، وعشرات من الغرف الأصغر، تحف به أسوار عالية انتثرت فوقها الأبراج، وله مدخل تحرسه أسود ضخمة منقوشة، وكانت الحدائق المعلقة اروع هذه المشاهد جميعا.

كانت الحدائق ممتدة على شكل مصاطب مدرجة فوق أبواب مقنطرة، وكانت مزروعة باشجار السنديان، والبلوط الأخضر، والصنوبر، والدلب، والصفصاف، والدردار، والنخيل، والبرتقال، والرمان. وكان البنيان كله يرتفع ٢٤ متراً، وبه سلالم تصعد من مدرج الى آخر، وكانت المياه تتدفق عليه على مدار السنة من ينبوع أدنى من مستوى سطح الأرض. هذه الحدائق المعلقة تعكس مدى حب «نبوخذ نصر» وهيامه بملكته الرائعة الجمال «اميهيا»، وهي أميرة من «ميديا» ذات الطبيعة الجبلية، فكان أن شيد لها هذه الحدائق الغناء، كهدية لها، لكيلا توحشها روابي بلادها أثناء اقامتها في ارض بابل المسطحة.

وعلى مقربة من قلب المدينة يقوم اعلى بناء في بابل، ذلك هو البرج المدرج الذي يعرف ببرج بابل، ويعلوه سقف من ذهب. وتروي احدى الاساطير البابلية ان الاله مردوك امر «نابو بولاسار»، والد «نبوخذ نصر»، ببناء البرج، جاعلا قواعده راسخة في الأرض بينما تتطاول قمته الى السماء. والى الجنوب من البرج كان يقوم معبد كبير آخر للاله مردوك يضم تمثالا للاله.

ذلك هو الوصف الكامل لمدينة بابل الاسطورية، يصور روعتها، وثراءها الذي تجاوز حد التصديق. وهناك الآن من يفكر جديا في اعادة بناء بابل التي أضحت اطلالا يقصدها علماء الآثار.

لا بد لمن تعنيه آثار العراق، التي تعكس تطور المجتمعات البشرية القديمة، من زيارة المتحف الوطني في بغداد، الذي يضم مجموعة ضخمة من القطع الأثرية، التي تنتمي الى ثقافات متباينة يجمعها تاريخ واحد، فمن شظايا الصوان في العصر الحجري التي عثر عليها في كهوف المنطقة الشمالية الى عدد هائل من



حفريات في مدينة «نيبور».



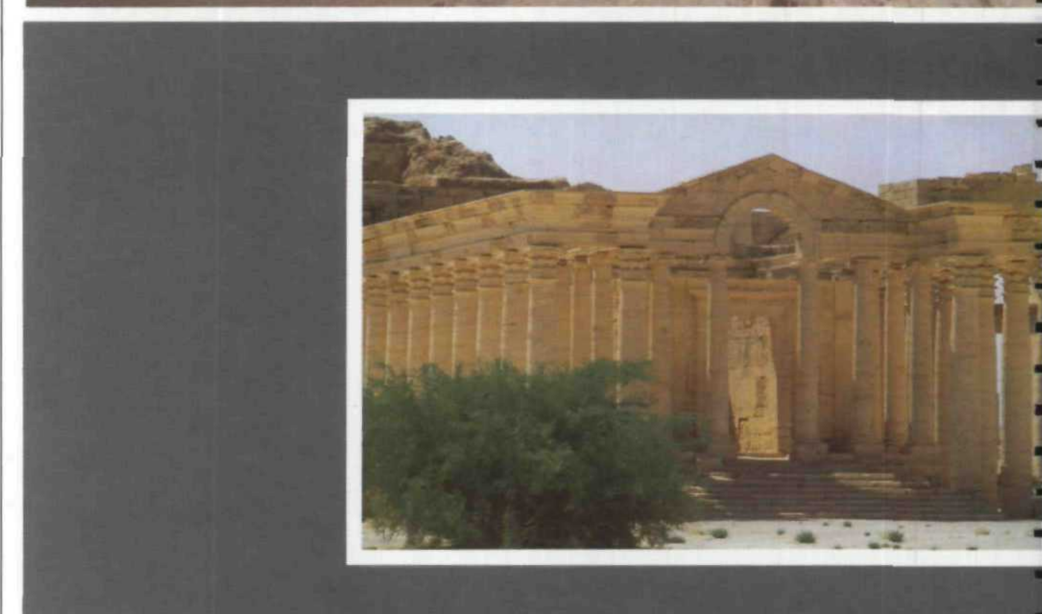
معبد في احدى مدن البارثيين.

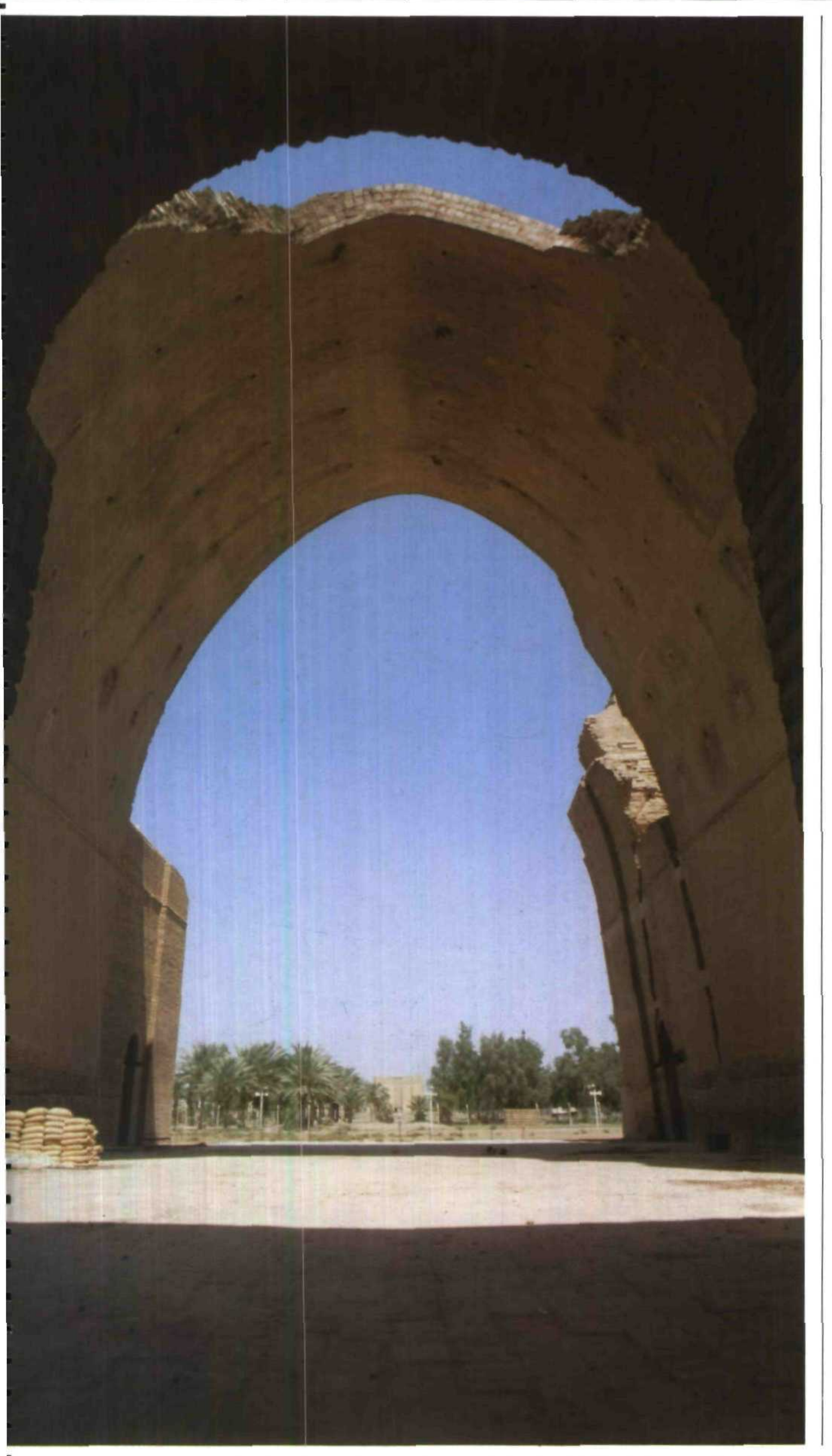
قطع أثرية خلفها السومريون، والاكاديون، والبابليون، والآشوريون، والبارثيون.

ومن بين المهتمين بآثار بلاد الرافدين، مهد الحضارات القديمة، الحملة الأثرية البريطانية التي يرأسها حاليا الدكتور «مايكل روف — Michael Roaf» والتي تتخذ لها مقرا في ضاحية منصور في بغداد وتحدث الدكتور مايكل روف عن نشاط البعثات الأثرية وعلماء الآثار في العراق قائلا:

ان علماء الآثار المحدثين يعملون بالتعاون الوثيق مع الوزارات والهيئات الحكومية المعنية بخطط التنمية في العراق، وذلك للحصول على معلومات مسبقة تتعلق بالانشاءات المختلفة كبناء السدود والطرق، واقامة المشاريع الزراعية وغيرها، لمعرفة مدى تأثيرها على الآثار الباقية ذات القيمة التاريخية. اننا في مثل هذه الحالات نحاول بقدر ما نستطيع أن ننقذ المعلومات الأثرية قبل ضياعها. فعلى سبيل المثال، عندما علمت الحملة من السلطات العراقية بأن هناك نية باغراق منطقة واسعة بالمياه التي يحجزها سد حمرين، وهي منطقة تضم بعض الآثار، بادرت الحملة الى تجنيد جيش من علماء الآثار من انحاء العالم وارسلتهم الى المنطقة قبل اغراقها. واستطاع علماء الأثار، رغم ضيق الوقت، من الحصول على معلومات قيمة تتعلق بانماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية لتلك الاقوام التي استوطنت في هذه المنطقة في غابر الأزمان.

ان هذه المعلومات، وخاصة ما يتعلق منها بانتقال السلع التجارية، والأساليب الفنية، والابتكارات التقنية، تساعد العلماء على فهم مراحل تطور المجتمعات القديمة، وعوامل التأثير الخارجية التي ساهمت في تشكيل تلك المجتمعات. وفي بلاد ما بين النهرين كانت الحضارة السومرية ذات تأثير واضح على الحضارات التي اعقبتها. بالاضافة الى أن الأنماط الحياتية تبين مدى تأثير حضارة ما في الحضارات الأخرى، لهذا فان علماء الآثار المعاصرين يعنون بصورة خاصة بدراسة هذه الانماط الحياتية، لأنها في نظرهم أهم بكثير من الأعمال الفنية التي كان يهتم بها علماء الآثار القدامى. فالحضارة السومرية ازدهرت في الجزء الجنوبي من العراق، في ذلك الجزء الضيق بين نهري دجلة والفرات قبل أن يتحدا في مجرى واحد يصب في الخليج العربي. في هذه البقعة بنى الانسان مدنه الاولى، واقام حكومة منظمة، وفوق ذلك كله عرف السومريون الكتابة حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، والتي تعتبر أهم عناصر تقدم الجنس البشري. واستقر السومريون في الأرض المنبسطة في جنوب العراق، وهي أرض خصبة اغدقت عليهم خيرات وفيرة، ومن طينها الداكن بنوا مدنهم ومعابدهم، وعلى الالواح الطينية خطوا أول كتابة عرفها الانسان.





وبامكاننا اليوم مشاهدة اطلال مدينة «اور» السومرية، وهي المدينة الدولة، على مقربة من مدينة الناصرية الحديثة، حيث نقف على بقايا «الزقورات» المهيبة في مدينة «اور»، التي استوطنها الانسان منذ آلاف السنين، والتي دمرت مرارا واعيد بناؤها.

لقد كان «ليونارد وولي — Leonard Woolly » هو أول من أجرى حفريات أثرية في منطقة الناصرية لاماطة اللثام عن مدينة «أور — Ur ». وبعد جهود مضنية تمكن عالم الآثار «وولي» من الوقوف على تاريخ مدينة «اور» من واقع الطبقات الارضية التي تم حفرها، تماما كما يتمكن عالم النبات من معرفة السنوات العجاف والسنوات السمان التي تصيب منطقة ما، من واقع حلقات جذع شجرة في المنطقة ذاتها. ووجد «وولي» في الطبقات السفلية السحيقة رواسب غرينية قديمة، تعتبر دليلا على الطوفان الهائل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، والتوراة، وفي ملحمة جلجاميش السومرية. أما اروع كشف أثري لعالم الآثار «وولي» فكان تلك المجزرة ، أو قل الانتحار الجماعي الملكي، حيث قام الجنود وخدم الملك بالانتحار، لاصطحاب ملكهم الميت الى «العالم السفلي»، اضف الى ذلك ما عثر عليه من كنوز أثرية نفيسة في ذلك الموقع، والتي يمكن مشاهدتها اليوم في المتحف البريطاني والمتحف الوطني في بغداد.

واذا غادرنا مدينة «اور» السومرية واتجهنا شمالا الى مدينة «الديوانية» الحديثة، فاننا نقف على «نيبور» المركز الديني للسومريين، وكانت تشتهر بمعابدها. وهنا نشاهد بعض اطلال هذه المعابد التي اتخذت منها الخفافيش بيوتا آمنة لها.

وحوالي ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أفل نجم السومريين وبزغ نجم الاكاديين بقيادة ملكهم «سرجون» الذي تروي بعض الاساطير أن امه كانت كاهنة، وانه كان يعمل في صدر شبابه حاملا لكأس ملك «كيش»، احدى المدن السومرية. ولم يلبث «سرجون» أن اطاح بهذا الملك، وهزم جميع المدن السومرية، وراح يوسع رقعة دولته حتى شملت معظم أجزاء الشرق الأوسط، وبذلك اسس أول امبراطورية عرفها العالم القديم. والملاحظ من النقوش التي خلفها السومريون انها تؤكد مظاهر السلام والازدهار، خلافا للنقوش التي خلدت اسم الملك «سرجون» الاكادي التي تعكس الروح العسكرية التي سيطرت عليه، والتي تصور المعارك الحربية التي خاضها، والمدن التي اخضعها والاسرى الذين ساقهم امامه الى عاصمة ملكه «كيش». غير أن هذه العاصمة تختلف عن مدينتي «أور» و«نيبور»، فاسوارها الضخمة القصيرة تعكس النظام البيروقراطي، كما أن البوابة الرئيسية لهذه الأسوار تعكس مظاهر الأبهة لاشباع غرور ملوك

جزء من بوابة عشتار الضخمة في «بابل» والتي جرى بناؤها حديثا.

هذه الآثار تشهد على عظمة حضارات بلاد ما بين النهرين.

«اكاد» وكبريائهم، وعلى رأسهم الملك «سرجون» الذي ضاق ذرعا بمدينة «كيش» على فخامتها، وبنى لنفسه عاصمة جديدة فخمة على ضفاف نهر الفرات اسماها «اكاد»، هذه المدينة التي لا يزال موقعها سرا مغلقا امام علماء الآثار.

وسرعان ما أخذ الوهن يدب في أوصال أكّاد، وراحت تضمحل شيئا فشيئا، الى أن بزغ نجم عملاق جديد هو الملك «حمورابي»، الذي اتخذ من «بابل» عاصمة لامبراطوريته الشاسعة. والتي تألقت وازدهرت بمعابدها وقصورها واسوارها، وبرجها، وحدائقها المعلقة، وازدادت ثراء بوصفها مركزا تجاريا مرموقا، حتى غدت درة فريدة على صدر بلاد الرافدين وأعظم مدينة على وجه الأرض آنذاك.

هذه المدينة المتألقة العريقة التي تقع على مقربة من مدينة «الحلّة» الحديثة، أصبحت اليوم قفرا يبابا، حتى أن زائرها اليوم يصاب باحباط وخيبة أمل. فقد انطمست كل مظاهر الأبهة والفخامة فيها، ولم يبق منها سوى اطلال هزيلة تتمثل بقاعدة برج بابل المشهور في التاريخ، وبوابة عشتار، الهة الحرب والحب، التي تزدان بالوحوش الكاسرة، وهذه البوابة هي نسخة حديثة لبوابة عشتار. اما الاصلية فموجودة في برلين، الى جانب بعض الواح الآجر المتناثرة والمنقوشة بالكتابة الاسفينية. والجدير بالذكر أنه يجري الآن اعادة بناء بعض معالم بابل القديمة، وخاصة بوابة عشتار التي تزدان بنقوش مجسمة لحيوانات مجنحة، وطريق الموكب الذي يمر من خلال بوابة عشتار.

وبعد البابليين، وفد الى بلاد ما بين النهرين الكاشيون، الذين ينتمون الى قبيلة لا يعرف حتى اليوم موطنها الاصلي مع أن بعض المؤرخين يذكر أنهم جاءوا من جبال عيلام. ويعزى الى الكاشيين الفضل في ادخال الحصان الى ارض الرافدين واستخدامه في الحروب. مع أنهم لم يتركوا لنا نصوصا تذكر، نستدل منها على انماط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الا أن هناك أمثلة حية على الحرف والصناعات التي زاولوها. فلم يقتصر نشاطهم على اعادة بناء وزخرفة المدن السومرية، بل شادوا عاصمة جديدة لهم، يمثلها اليوم اطلال بارزة في «عقرقوف» في ضواحي مدينة بغداد، حيث نشاهد بقايا زقورة مبنية من قطع الآجر الصغيرة، وبقايا قصور تحيط بالزقورة يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

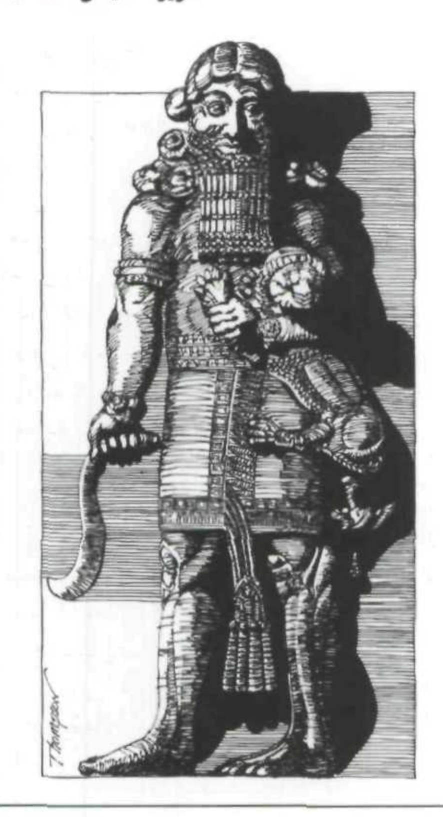
ونتجه شمالا لنقف على آثار الآشوريين، ونتوقف في مدينة الموصل التي تعج بالحركة والنشاط. في هذه المنطقة الجبلية، اسس الاشوريون امبراطورية مترامية الاطراف، وبنوا مدنا عظيمة كان لها في تلك العصور السحيقة شأن كبير. من بين هذه المدن القديمة «نينوى» التي بنيت في القرن التاسع قبل الميلاد، وتقوم على مقربة من مدينة الموصل.

ان أول ما يصافح عيون الزائرين في تلك المنطقة اسوار نينوى التي تتلألأ تحت اشعة شمس الموصل، والبوابات الضخمة التي تزدان بنقوش مجسمة رائعة لأسود وثيران مجنحة ذات رؤوس آدمية. والجدير بالذكر أن بوابة نينوى الشمالية قد أعيد بناؤها بمواد بناء أصلية، ونقش عليها ثوران مجنحان ضخمان. وعلى بعد نحو ٥٠ كيلومترا الى الجنوب من مدينة الموصل نقف على آثار مدينة «نمرود» الاشورية وتشمل المعابد والقصور ومنها قصر الملك «اشور بانيبال الثاني» الذي دعا لحفل افتتاحه ما يربو على سبعين الف ضيف. ومن مدن الاشوريين الأخرى التي كان لها شأن كبير مدينة «آشور» التي عثر عليها الالمانيان «كولديوي» و«آندراي» عام ١٩٠٣م، فقد اكتشفا قصورا ومعابد ومنها «معبد آشور» كبير آلهة الاشوريين، وهو هرمي الشكل مؤلف من عدة طوابق.

تلك هي لقطات لبعض المعالم الأثرية النفيسة في القطر العراقي، والتي لا تنفك تجتذب عددا كبيرا من علماء الآثار، والمؤرخين، والباحثين، الذين يواصلون التنقيب عن تلك الحضارات العريقة التي ازدهرت في العراق □

عن «ارامكو وورلد» بتصرف

تصوير: مايكل سبنسر



اليمام الزائر

شعر : محمّد برهام / الاسكندرية

ألمت يمامات يبضن بشرفتي
ويتركنني أرعى لهن صغارا
ويلبسن أضواء الحياة فليلها
سكون، ويجمعن الحصاد نهارا
ويقصدن باب الله يطلبن رزقه
ويأخذن من وقت البكور مسارا
أكان ركوب الريح سهلا مذللا
ام الريح كانت عاصفا ونفارا
وان لاح في أفق الى العين صائد
يخاتلنه لا ينثنين حذارا
هناك خماص في انتظار رجوعها
وتغدو عيونا يمنة ويسارا
اذا أقبلت قرت عيون، وأشبعت
بطون، وآوت للأمان حيارى
وان أبطأت في العود والجوع عضها
«تصوصو» تستجدي الغياث مرارا
فأسعى لها بالحب يملأ راحتي
فتنقر منه جملة ونثارا
الى أن تعود الأم ترنو بغبطة
الي، لأني قد أقلت عثارا
وأرجع من فوري وأطوي مروءتي
وأفراخها في قفزها تتبارى
فمها أقدم نحوها من رعاية
فان حنان الأم ليس يجارى

غداة بنين العش كن يخفنني
وها هي تجري بالعيون حوارا
فكيف اطمأنت لي اليمامات وارتضت
جواري ولم تختر سواه جوارا
أهمسة أقدار اليها تزورني
لتكسر من صمت الحياة جدارا؟
وتؤنسني في وحدتي بصغارها
وتجعل بيتي مرفأ ومطارا
يمامي يا «انسان» ان كنت ملهما
بسر فشكرا يا يمام جهارا
بصرت بسكيني غداة كسرتها
وألقيتها فلتستقر مزارا
ويسعدني أن أستضيف مفزعا
متى كنت أدنو منه خاف وطارا
وتسعدني الأفراخ في حضن أمها
وأني أرى ريش الجناح دثارا



اليوم، ليله ونهاره في الألفاظ المثناة

بقلم: عيسى الجراجرة / عمّان

تمهيد

أعيش اعتقادا يوجه حياتي ككاتب وصاحب قلم يقول: ان كل كلمة من كلمات اللغة، تقص قصة طريفة، او تسرد تاريخا طويلا، او تكشف عن رحلة ذهنية جميلة. كذلك فان لغة القوم وكلماتها ومفرداتها، تكشف هي بدورها عن منحى تفكير الأمة التي تتكلم اللغة واللسان، حتى ان كلمات اللغة ومفرداتها، قد تقص علينا تاريخا قد لا تقصه كتب التاريخ. ومن المعروف ان اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والمحسوسات، وسبيل للتفاهم، وواسطة للاتصال والتواصل مع الآخرين، وحتى تتم عملية التعبير عن الأفكار والمحسوسات بوضوح وجلاء ويتم التفاهم بسهولة ويسر، ويجري الاتصال والتواصل مع الآخرين في سرعة ومن غير تطويل لا طائل من ورائه، فان اللغة من خلال تطورها ونموها قد أصبحت تحتوي الاسلوب الافضل، والطريقة الأنسب لتحقيق أفضل المستويات في التعبير الجلي، والتفاهم الأكيد والاتصال والتواصل الناجح.ومن أبرز معالم الجمال وبراعة التعبير في لغتنا العربية الشريفة، لغة القرآن الكريم، التعبير بالمثنى او الألفاظ المثناة. والمقصود بالمثنى، او الالفاظ المثناة في هذا المقال هو: كل لفظ بصيغة المثنى يتضمن معنًى ثابتا أو معنيين متلازمين اقترانا ضروريا ودائما، كما هو الحال في اسماء الاعلام والأسماء المعرفة، بحيث نعرفها معا، ولو ذكر احدهما لذكر الآخر معه، وتنطوي هذه الألفاظ على عدة انواع ولذلك فسوف نقصر حديثنا في هذه المقالة على نوعين فقط من الالفاظ المثناة هي:

* ما يأتي من نعت خارجي مشترك لكلا الاسمين، مثل: الجديدان، لليل والنهار.
* ما يأتي لصفة ظاهرة مشتركة لكلا الاسمين، مثل: الاسودان، للحية والعقرب.

وامعانا في التحديد، فسوف نختار ظاهرة حياتية واحدة محددة هي اليوم، ليله ونهاره... ونحاول تتبع واستقصاء ما وضع من ألفاظ مثناة في اللغة للتعبير عن هذه الظاهرة. وسوف نستعين في هذه المهمة بمعاجم اللغة الكبرى، مثل لسان العرب، وتاج العروس، ومعجم الألفاظ المثناة لشريف الامين، ومعجم المحبي، وفصل الالفاظ المثناة في كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت (ومادة مشروع معجم الالفاظ المثناة لكاتب السطور)، وغيرها من كتب ومعاجم اللغة ومصادرها.

* اليوم، ليله ونهاره: اليوم هو مدة اربع وعشرين ساعة تقريبا من عمر الزمان، وهي المدة التي تتم فيها الارض دورة كاملة حول محورها. وعليه يكون اليوم هو الزمن بين شروقين متتالين للشمس، ومن تعاقب شروق الشمس ومغيبها يتعاقب الليل والنهار.
* والنهار: فترة الضياء ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس (الوسيط).
* والليل: ما يعقب النهار من الظلام، وهو من مغرب الشمس الى طلوعها. والليل في لسان الشرع: من مغربها الى طلوع الفجر. ويقابل الليل، النهار. وقد يستعمل اليوم مرادفا للنهار، أي الزمن من طلوع الشمس الى غروبها.

في التنزيل العزيز ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم**﴾ (المائدة، ٣) (الوسيط).

* اما ايام العرب فهي وقائعهم.
* وايام الله: هي نقمة في الامم الماضية، وايام الله كذلك هي نعمة ايضا، وبها فسر قوله عز وجل: ﴿**وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ (ابراهيم، ٥).

الألفاظ المثناة مرتبة على حروف المعجم

لليوم، ليله ونهاره:

* * الابردان: الغداة والعشي وهما: طرفا النهار، من اقوالهم: «كان يسير بنا الابردين»، «وسر بها البردين» او العصران (كالبردين) بفتح فسكون، والابردان أيضا: (الظل والفيء).

* والاصل في توليد هذه اللفظة المثناة هي:
* برد — بردا وبرودا: هبطت حراراته، فهو بارد وبرود، وبرد الشيء بردا: جعله باردا، او خلطه بالثلج.
* وبرد — برودة صار باردا وبردت الارض: اصابها البرد، وابرد: دخل في البرد، وابرد دخل في آخر النهار (الوسيط).
* وفي الحديث: «**من صلى البردين دخل الجنة**»، وقد سميا بذلك لبردهما قال الشماخ بن ضرار:

اذا الارطي توسد ابرديه
خدود جواري بالرمل عين

(ديوان الشماخ ص٩٤، واللسان والمقاييس ١/٢٤٢)
* وأبرد الرجل: (دخل في آخر النهار)، ويقال: جئناك مبردين، اذا جاءوا وقد باخ الحر. وقال: محمد بن كعب: الابراد: ان تزيغ الشمس قال: والركب في السفر يقولون اذا زاغت الشمس: قد ابردتم فروحوا، وذلك انهم ينزلون للتغوير في شدة الحر ويقيلون، فاذا زالت الشمس ثاروا الى ركابهم، فغيروا عليها اقتابها ورحالها، ونادى مناديهم: الا قد ابردتم فاركبوا.
* ومن المجاز ما انشد ابن الاعرابي:—

اني اهتديت لفتية نزلوا بردوا غوارب اينق جرب
أي وضعوا عنها رحالها لتبرد ظهورها.

* وفي الحديث: «**ابردوا بالظهر فان شدة الحر من فيح جهنم**» قال ابن الاثير: الابراد انكسار الوهج والحر، وهو من الابراد اي الدخول في البرد، وقيل معناه: صلوها في أول وقتها من برد النهار وهو اوله، وابرد القوم: دخلوا في آخر النهار. وقولهم: ابردوا عنكم من الظهيرة أي لا تسيروا حتى ينكسر حرها ويبوخ.
* * ابنا جمير: الليلتان يستسر فيها القمر، أي لا يظهر فيهما: في اولاهما، ولا اخراهما، وقيل هما آخر ليلتين في الشهر.
* واجمرت الليلة: استسر فيها الهلال أي لم يظهر فيها الهلال.
* وابن جمير: هلال تلك الليلة،
قال كعب بن زهير في صفة ذئب:

وان اطاف ولم يظفر بطائلة
في ظلمة ابن جمير ساور الفطما

(ديوانه ص ٢٢٦)
* وقيل ظلمة ابن جمير: اخر الشهر، كأنه سموه ظلمه ثم نسبوه الى جمير، والعرب تقول: «لا افعل ذلك ما جمر ابن جمير» (التاج) اي لا افعل ذلك ابدا.

* * وابنا جمير: الليل والنهار، سميا بذلك للاجتماع، كما سميا ابنا سمير لانه يسمر فيهما، والجمير: الدهر.
* * ابنا الدهر: الليل والنهار، من أمثالهم: هو الدهر وابناه: الليل والنهار.
* والدهر: الامد الممدود، وقيل: الدهر الف سنة، وقيل الدهر: الزمان الطويل، ومدة الحياة الدنيا (اللسان) والدهر: الزمان قل أو اكثر (التاج).
* ابنا سبات: الليل والنهار، والسبت: الدهر، والسبات النوم واصله الراحة.

قال ابن احمر:

فكنا وهم كابني سبات تفرقا
سدى، ثم كانا منجدا وتهاميا

وقيل السبات: نوم خفي، والسبات: ابتداء النوم في الرأس حتى يبلغ الى القلب.
* * ابنا سمير: الليل والنهار، لانه يسمر فيهما، وانما يسمر في الليل، اما السمر في النهار فمن باب المجاز، ومن اقوالهم لا آتيك ما اختلف ابنا سمير (أي لا يأتيه الى الابد) قال ابن الرومي:
لابني سمير صروف غير غافلة
* السمير: الدهر وفي هذا يقال لا آتيك ما سمر ابن سمير، وما سمر السمير، قيل هم الناس يسمرون.
* وابن سمير: الليلة التي لا قمر فيها، قال الشاعر:

واني لمن عبس وان قال قائل
على رغمه: ما اسمر ابن سمير

أي ما امكن فيه السمر
* * الاثرمان: الليل والنهار، لنقصهما.
ثرم، ثرما: انكسرت سنه فهو اثرم وهي ثرماء.
* * الاجدّان: الليل والنهار، لانهما لا يبليان ابدا، وهما الجديدان.
ويقال جدد الشيء: صيره جديدا، وتجدد الشيء: صار جديدا، واستجد الشيء: استحدثه وصيره جديدا.
* الاحدثان: الليل والنهار... والغدوة والعشية كذلك.
* * الاخضران: البحر والليل.
* يقال اخضر الليل: اسود، ويقال اخضرت الظلمة: اشتد سوادها.
* الاسبوعان: «ابن الاسبوعين»: هو البدر لاربع عشرة ليلة، قال الشاعر:

وجلوت عني الظلماء بغرة
تزهي ابن الاسوعين ازهر تاجها

* * الاسودان: الليل والنهار، قال الحارث بن حلزة:

فهداهم بالاسودين وامر الله
بلغ تشقى به الاشقياء

** الاصرمان: الليل والنهار، لان كل واحد منهما انصرم عن صاحبه

* انصرم: انقطع، وانصرم الليل: ذهب، وانصرم الشتاء: انقضى... تصرم الليل: تقضى

* الاصيلان: الغداة والعشي

* الاصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها.

** الاعميان: النار والليل

وهما كذلك السيل والليل، ومن اقوالهم: «وهبت اخاءك للاعميين.

** الاهرمان: الليل والنهار، والاهرمان كذلك: الغدوة والعشي.

حرف البـاء

** الباكران: الصبح والمساء.

** البردان: العصران قال النابغة الجعدي:

اقامت به البردين ثم تذكرت
منازلها، بين الدخول فجرتم

وقال ابن الاحمر:

يسرن الليل والبردين حتى
اذا اظهرت رفعن الطلالا

* البردتان: الابردان: الغداة والعشي.

** حروف: التاء، الثاء... لا يوجد

حرف الجيم

** الجاران: الليل والنهار.

** الجديدان: الليل والنهار، وهما لا يفردان قالت الخنساء:

ان الجديدين في طول اختلافهما
لا يفسدان ولكن يفسد الناس

** الجذعان: الليل والنهار.

حرف الحـاء

** الحاديان: الليل والنهار

والحاديان في الاصل: راعيا الابل، الاول في المقدمة، والاخر في الوسط او في المؤخرة وهما يتناشدان الاشعار، قال الشريف الرضي:

واستقيمي قد ضمك اللقم
النهج وغنى وراءك الحاديان

** الحبلان: الليل والنهار، قال الشاعر:

ألم تر أن الدهر يوم وليلة
وان الفتى يمسي بحبليه عانيا

** الحدثان: الليل والنهار

— والحدثان كذلك هما:

— الحدث الاكبر مثل: الجنابة ولمس الميت

— الحدث الاصغر مثل: البول والغائط (عند الفقهاء)

— والحدثان كذلك هما: الشر والامر العظيم، قال الشاعر:

وتمنعها بنو القين بن جسر
اذا اوقدت للحدثين ناري

** الحرسان: الليل والنهار

* حرس الشيء: حفظه، والحارس الذي يؤتمن على حفظ شيء لا يؤمن ان يخون فيه.

* والحرس: وقت من الدهر دون الحقب، والحرس: الدهر قال الراجز: في نعمة عشنا بذلك حرسا، اي وقت من الدهر والزمان.

* وعليه فالحرسان اي الليل والنهار هما: وقت من الدهر والزمان.

** الحزاران: يوم الحوارين، من ايام العرب في الجاهلية.

حرف الخـاء

** الخابلان: الليل والنهار، لانهما لا يأتيان على احد الا خبلاه بهرم قال المهلهل:

لو كنت اقتل جن الخابلين كما
اقتل بكرا لاضحى الجن قد نفدوا

* الخبل: الفساد ويكون في الافعال والابدان والعقول، والجن والشيطان، والخابل المفسد.

** الخفقتان: اول الليل واخره، من امثالهم: «سير الليل الخفقان، وهما اوله وآخره، وسير النهار البردان اي غدوة وعشية».

* الخفق: اضطراب الشيء العريض، يقال راياتهم تخفق وتختفق، ويقال خفق برأسه من النعاس: اماله، وقيل: هو اذا نعس نعسة ثم تنبه، وفي الحديث: **كانت رؤوسهم تخفق خفقة او خفقتين**.

* ولعل اللفظة قد ولدت من: خفق الليل: اذا ذهب اكثره.

** الخيطان: الخيط الابيض والخيط الاسود من الفجر، فالخيط الابيض هو نور الصبح اذا تبين للابصار وانفلق، والخيط الاسود دونه في الانارة لغلبة سواد الليل عليه، قال الوليد بن يزيد:

حتى اذا ما بدا الخيطان قلت لها
حان الفراق، فكاد الحزن يشجيها □

العقاد الشاعر.. بين منهجين في النقد



بقلم: د. محمد أحمد العزب / القاهرة

يثير شعر العقاد اشكالية نقدية ما تزال في حاجة الى تأمل زواياها وابعادها، حتى نضعها في اطارها الصحيح، لأن شعر العقاد يتسم بالفكرية الواضحة في كثير من نماذجه، حتى ان بعضا من اشد حوارييه من النقاد والادباء والمفكرين لا يستطيعون انكار هذا الجانب الفكري الذي يتكىء في شعره على درجة واضحة من الوعي المتيقظ، والتأمل التجريدي، والتجارب المنطقية، التي تنئ غالبا ما يتطلبه الشعر من رفرفة وانطلاق وتظليل وسبحات. ولكن الأمر ليس على هذا النحو من الاجماع الذي قد يتخيل الى ان نقاد العقاد الشاعر يأخذون عليه غلبة الجانب التفكيري في شعره، ويدلفون بالتالي من هذا المدخل الى ادانة الشعر والشاعر على السواء، فهناك نقاد يرون ان عظمة شعر العقاد تكمن في قدرته على التفكير بالشعر، وان هذا الجانب الفكري في شعره يمنحه نوعا من الخصوصية الفنية الرفيعة، التي تجعله ليس مجرد مرور عائم على سطوح الأشياء، وانما مجاسدة وكشف لبواطن البواطن في هذه الأشياء، ومن هنا يوصف شعر العقاد، بالرصانة والصلابة والعمق والسموق، او هو اقتراب من حد الشعر العظيم كما يحدده العقاد ذاته في هذه المقولة: «وحد الشاعر العظيم عندي هو ان تتجلى في شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وجلالها وعلانيتها واسرارها، او ان يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة ومذهبا في حقائقها وفروضها، ايا كان هذا المذهب، وايا كانت الغاية الملحوظة فيه». (مطالعات ١٩٧).

وبين هذين الاتجاهين في تناول الظاهرة الشعرية عند العقاد، يظل المجال مفتوحا لعديد من الاجتهادات في هذا الصدد، وتظل الكلمة الأخيرة في شعر العقاد، وفي سائر الشعر، احتمالا غير وارد بالضرورة، لأن الفن الحقيقي هو الذي يثير أكبر كم من الاسئلة، ويفتح عيوننا النقدية باستمرار على مستوى من الفهم بعد مستوى، ربما لأن اعماق هذا الفن أبعد من أن نصل اليها بضربة معول واحدة.

وقد اخترنا في هذه الدراسة ان نقف على شعر العقاد بين منهجين في النقد: منهج فني يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة جمالية ترتكز في مجملها على الاحساس بالنص، ثم على تأمل جماليات هذا النص من حيث هو بناء لغوي يحمل في طياته تجربة نابضة، ومنهج فلسفي يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة أخرى، ترتكز في مجملها على الاحساس بالنص كذلك، ثم على محاولة ربط هذا النص كجزء بكلية الحركة الكونية، من خلال تأويل مقولاته وابنيته، وايضا من خلال اقامة نوع من التعادل بينه وبين نوعيات من التصاميم الفنية الأخرى التي تنهض جميعها في النهاية بعبء اقامة حوار جمالي مع سائر الأشياء والاحياء.

أما المنهج الأول فيمثله الناقد العربي الراحل «سيد قطب». واما المنهج الثاني فيمثله الناقد العربي «الدكتور زكي نجيب محمود». وسنرى أن كلا من الناقدين يحاول تبرير العقاد الشاعر من وجهة خاصة، ترتكز عند «سيد قطب» على الحس الجمالي، وعند «زكي نجيب محمود» على الحس الفلسفي، ولكنهما يلتقيان في النهاية على اجتهاد جاد في شعر العقاد، لا يهمنا ان يكون اجتهادا مع هذه النوعية الشعرية او ضدها، بقدر ما يهمنا أن يكون اجتهادا مسلحا برؤية نقدية ثاقبة، وايضا بطوية نفسية نظيفة.

ويقرر سيد قطب أن العقاد الشاعر يتميز دائما بالحضور وبالوعي وبالوضوح، ومن ثم فان للمجهول عنده نصيبا أقل من الضئيل، حتى في هذا القدر فهو محكوم عنده بكونه فكرة واعية لا مجهولا ضبابيا. ويذهب الى أنه من هذه الينابيع يتفجر شعر العقاد، فيكثر فيه تصوير النفس والفكر والمنطق، بعيدا عن تأمل الانطلاقات والظلال. وان كانت الحيوية المتدفقة والحبكة الرصينة والعمق الدقيق والصدق النفسي في هذا الشعر المفكر تعوضه كثيرا عن الرفرفة الطليقة، وعن الايقاع المتموج. وعن الانطلاق الهائم، وعن السبحات التائهة. ومن هنا فان الحيوية الدافقة تبلغ بشعر العقاد كما يرى، ذروة التوفيق اذا اتيحت له بكم يؤهله لبلوغ مثل هذه الذروة.

ويقرر سيد قطب ان الايقاع في شعر العقاد يبدو محددا رصينا، لا طلاقة فيه، ولا مدى للتموجات والرقص وتمرد الاندفاع، ومن ثم فقد يجوز القول بأن كثيرا من شعر العقاد يمكن ان يضاف الى رصيده من التجريد الذهني والتأمل النثري، وليس الى رصيده من الابداع الشعري والتحليق الخيالي.

واذا كان الشعر ليس فقط مجرد التعبير عن اللوعة اللاعجة، وانما هو كذلك التعبير عن الطلاقة والمرح، والتعبير عن الشجي الخافت، والتعبير عن الوان شتى من هذه الآفاق، فان حدود الشعر، كما يرى سيد قطب، تتجسد في ان الشعر لا يحدده الموضوع الذي يقال فيه، ولكن تحدده درجة الشعور بهذا الموضوع. وطريقة التعبير عن هذا الشعور، وهذا هو ما كان ينبغي أن يتوافر في شعر العقاد. «فايما احساس استجاش النفس، ورفع نبضها عن النبض العادي اليومي، وجعلها تحس بالوهج او الانطلاق او الرفرفة او السبح في عوالم مجهولة، وخلصها، ولو لحظة، من الوعي الكامل او الصحو المتيقظ، فهو احساس شعري».

هذا مجمل الرؤية النقدية التي واجه بها سيد قطب شعر العقاد الشاعر، ثم افضى بعد هذه الرؤية الى اجراء نقدي تطبيقي حلل فيه نماذج من شعر العقاد، ورضي عن بعضها ورفض بعضها الآخر، دون ان نستشعر في أي لحظة نوعا من مرارة الحقد، او نوعا من تسيب المجاملة.

أما الدكتور زكي نجيب محمود فيتناول شعر العقاد من وجهة فلسفية نحس بايقاعها منذ أول السطور. ونعني هنا بالوجهة الفلسفية محاولته في رد الجزئي الى مكانه في الكلي، والمحدود الى سياقه في اللامحدود، والخاص الى موقعه في العام، أي رد الظاهرة الشعرية الى مناطها من حركة التعبير الشمولي عن الحياة والأشياء والمابعد.

ولأن سمة الشعر العظيم، وكما يرى الناقد، تكمن في ان يستحيل البصر موحيا الى البصيرة، والحس محركا لقوة الخيال، والمحدود منتهيا الى اللامحدود، فان شعر العقاد يعد في مستوى الشعر العظيم، لأنه يعبر بالمتلقى من الخاص الى العام، ومن الآني الى اللازمني. وهذا هو ما يميزه عن غيره من الشعر.

ويحاول الدكتور زكي نجيب ان يضيء شعر الشخصية بهذا الفهم النقدي المرهف الذي ينضح ايحاء. فاذا قيل ان الشاعر الحق يصور الحياة، فليس التصوير المقصود هنا تصوير المرآة للواقف امامها، بل هو تصوير المثال الثابت للجزئية الطارئة حتى تلحق به ولا تظل مجرد جزئية منفصلة.

وكذلك ينهض شعر العقاد شاهدا على الشعر الذي يعكس صورة شاعره ولا يعكسها معا، لأن الشعر الذي يعكس شاعره شعر رديء، ولأن الشعر الذي يعكس شاعره (فقط) شعر رديء كذلك، وما هكذا شعر العقاد، انه يطل من خلاله على الكون، فهو موجود وغائب معا في القصيدة نفسها، محدود ومطلق في نفس العمل الفني، ومن هنا تتأكد العلاقة الصحيحة بين الشعر والشاعر: الشعر كعمل ابداعي يخاطب الكون، والشاعر كمفرد ينطوي في النهاية على معنى الجمع.. ومن هنا كذلك تلوح الأشياء الحسية في شعر العقاد غير مقصودة لذاتها، وانما لتجسيد المعاني والأفكار وامواج النفس..

وكاجراء نقدي، يتناول الدكتور زكي نجيب محمود نماذج من شعر العقاد ليدلل بها على قضيته. ففي قصيدته «العقاب الهرم» مثلا، تتجسد هذه الملامح الفنية. «فاللقطة الحسية هنا هي عقاب زالت عنه قوة شبابه، فجثم على الارض عاجزا عن النهوض والتحويم في اقطار السماء كما كان يفعل ابان عنفوانه، ويتلفت الشاعر حوله. فاذا صرصور ناشط بوثباته، واذا طائر القطا يصيح، اما شيخ الطيور فقد حطمته السنون، ولم يعد له من حياته الا الحطام، لكن واعجبا لعينيه الواهنتين، ما زالتا ترهبان بغاث الطير فتفر هاربة لا تقوى على مجرد النظر الى صاحب السطوة حتى بعد أن زالت عنه سطوته. هذه هي الصورة المرئية المحسوسة، يرسمها الشاعر بتفصيلاتها رسما يوحي للقاريء اشد ايحاء بالصورة المتكررة في شتى الكائنات وعلى مر العصور: صورة المجد المخوف المهيب المرهوب الجناب، تذهب مع الايام قوته المادية، لكن تبقى له آثار الهيبة الماضية يخشع لها الرائي راضيا او كارها».

واذن فلا غرابة ان يكون شعر العقاد، كما يرى الدكتور زكي نجيب محمود، أقرب شيء الى فن العمارة والنحت، فلا الفكرة عنده قريبة المثال، ولا المادة سهلة التشكيل، انه يرغم المادة ارغاما حتى تستوي على النحو الذي يريده هو لها، كما يرغم المثال قطعة الجرانيت على التشكل بالصورة التي يبتغيها لها، فهي التي تطاوعه، واما هو فلا يطاوعها الا بالمقدار الذي يبرز طبيعتها وصلابتها.

ويحاول الدكتور زكي نجيب محمود ان يجرد الحديث النقدي تجريدا يشارف به التفلسف الشامل، فاذا كانت هناك حدود نقدية بين ما نطلق عليه «الجليل» وما نطلق عليه «الجميل» كما يقول، فان شعر العقاد ادخل في باب «الجليل» منه في باب «الجميل»، لان فيه قوة، وصحوا، وعزما، وكبرياء وجدا، فلا عجب ان يمس ديوانه العابثون فيتركوه قائلين: هذه فلسفة وليست شعرا.

وبهذه الرؤية الجمالية التي حددها سيد قطب لشعر العقاد، وبهذه الرؤية الفلسفية التي حددها زكي نجيب محمود لشعر العقاد أيضا، نجد أنه على الرغم من تباين المنهجين النقديين، يظل شعر العقاد موضع الاعجاب والتقدير هنا وهناك. وان كان ذلك لم يمنع بالطبع من مؤاخذات نقدية تستدرك على مثل هذا الشعر نسيانه احيانا انه شعر، وخوضه في مقولات تجريدية أو منطقية، بصيغة فكرية تقريرية وليس بصيغة شعرية تخييلية.

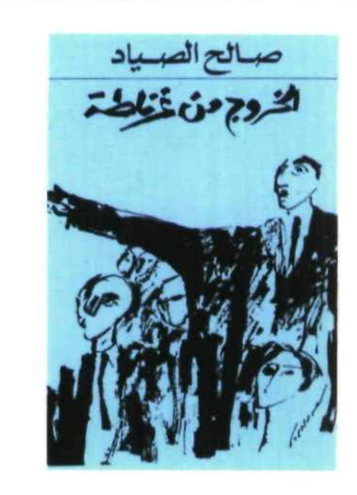
على أننا نسارع بالقول بأن من حق الشعر أن يخوض في شتى آفاق الاحساس والفكر، وان يحمل في طياته كل رؤى التعميق والاستقصاء، ولكن بشرط ان يظل شعرا قادرا على امتلاك قارئه من خلال اشعال نوع من الحرائق العاطفية في وجدانه المتلقي، واقامة جسور واصلة بينه وبين سرائر الأشياء والأحياء.

واذا كان سيد قطب رفض جانب التقرير والمباشرة وتعقيل الاحاسيس في شعر العقاد، فقد كان على حق تماما في هذه القضية، لان مهمة الشعر تكون في التخييل أكثر مما تكمن في التحقيق. ومن حق الناقد ان يرفض في أي شعر هذا النوع من التحديد الايقاعي الممل، وان يدعو باستمرار الى نوعية من الايقاع الراقص المتدفق. كما ان من حق الناقد أن يدعو الشعر الى اقتحام المجاهيل وخطاب الماضي والحاضر والمستقبل. لا أن يظل شاهدا على المتواتر والآني والمعروف. وهذا كله قد اشار اليه سيد قطب في تضوبثه لشاعرية العقاد الشاعر، دون أن تحجزه عن مقولة الحق علاقته الوطيدة المعروفة به.

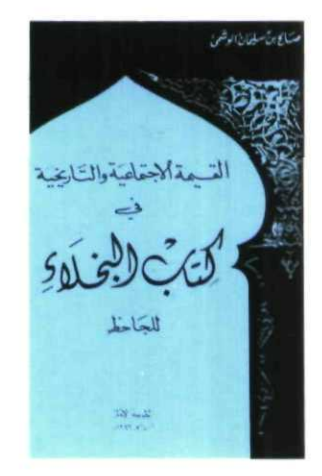
ولكن الدكتور زكي نجيب محمود، مع التسليم باصالة رؤيته النقدية لشعر العقاد وشاعريته معا، آثر جانب الدفاع المطلق عن شاعره الأثير، فبرره جميعا، دون ان يتلبث قليلا أو كثيرا عند بعض مزالق الابداع في شعر العقاد. فبرر احجام الكم الفكري في شعره، وبرر تجريداته *الفلسفية*، وبرر العمدية المقصودة في تطويع المادة وليس في اذابتها، او حتى على الأقل جعلها خلفية فلسفية ينزع عنها الشعر وهو قابض على اساسية التخييل والغياب. ولكن ذلك لا يطفيء من بريق هذه الرؤية النقدية الثاقبة، ولا يقلل من قيمة الجهد النقدي في العبور من مجرد التحديق الجزئي في النص، الى محاولة امتلاك رؤية شمولية تجعل من الشعر ابداعا صميما، وليس مجرد مغازلة للأشياء بالكلمات.

واذن فنحن مع هذين المنهجين في دراسة شعر العقاد امام نوع من المحاولات الجادة المثقفة، التي تحترم عقل القاريء وابداع الفنان، وتبذل من معاناة الفهم قدرا مساويا او يوشك أن يكون مساويا لمعاناة الفنان في تشكيل عمله الفني، وايضا لمعاناة المتلقي في محاولته لقراءة النص قراءة تجعل منه ربما رمزا، وربما معادلا، وربما كونا لغويا يوميء الى الكون الحي بلا حدود. وهذا هو المدخل الحقيقي الى فن قادر على اثرائنا من الداخل، واضاءة عيوننا بفرحة الكشف، ونشوة الامتلاء □

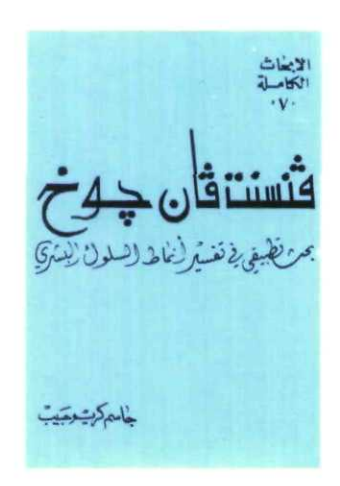
كتب مهداة



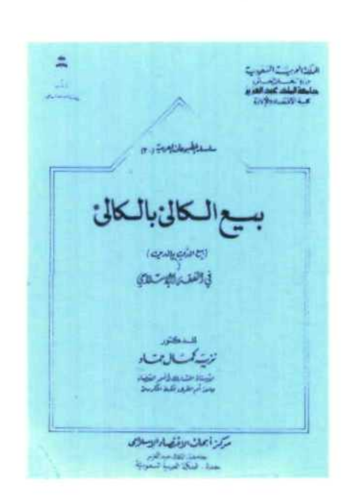
• «مجموعة قصصية بعنوان «الخروج من غرناطة» للأستاذ صالح الصياد. يقع الكتاب في ١٣١ صفحة ويحتوي على ١٤ قصة قصيرة اقتبس المؤلف احداثها ومواضيعها من البيئة التي يعيش فيها، ومن هذه القصص: «فاكهة امشير، من دفتر الأحوال»، و«حلم الظهيرة»... وآخر قصة في المجموعة بعنوان «الخروج من غرناطة»، وهو العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه.



• «القيمة الاجتماعية والتاريخية في كتاب البخلاء للجاحظ». يقع الكتاب في نحو ١٤٨ صفحة، وهو من تأليف الاستاذ صالح بن سليمان الوشمي، ومن اصدارات الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون — القصيم، بريدة. وقد طبع الكتاب وصمم في مطابع السليمان في بريدة. وهو محاولة لكشف بعض الملامح الاجتماعية والتاريخية في فكر الجاحظ، من خلال رؤية منهجية لكتابه القيم «البخلاء».



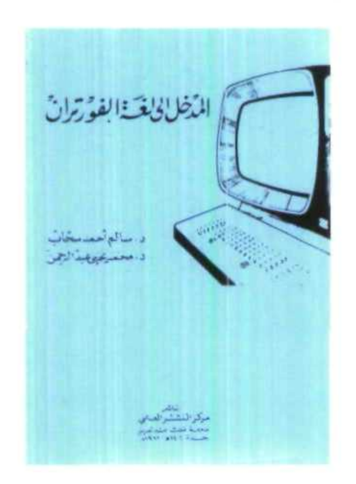
• «فنسنت فان جوخ — بحث تطبيقي في تفسير انماط السلوك البشري». وهو من تأليف الاستاذ جاسم كريم حبيب، ومن منشورات آمال الزهاوي، وطباعة مطبعة واوفسيت عشتار — بغداد. يقع الكتاب في نحو مائة صفحة. وهو تكملة لبحث نشره المؤلف عام ١٩٨٢ بعنوان «رسالة في تفسير السلوك البشري»، كما انه تطبيق عملي لمختلف أنماط السلوك.



• «بيع الكالىء بالكالىء في الفقه الاسلامي» تأليف الدكتور نزيه كمال حماد — الاستاذ المشارك في جامعة أم القرى بمكة المكرمة. واصدار مركز ابحاث الاقتصاد الاسلامي بجامعة الملك عبدالعزيز. يقع هذا البحث في ٣١ صفحة وهو عبارة عن دراسة في ادلة منع الدَّين بالدين وحقيقته وما الحق به ومدى الحاجة اليه.

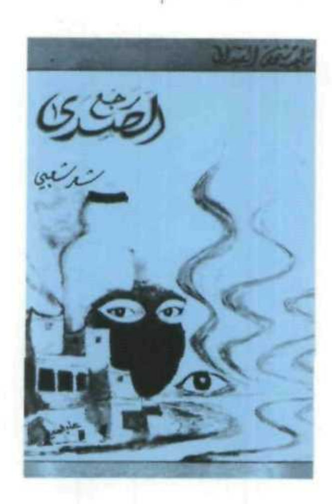


• «انتانات السبيل البولي» بحث علمي لنيل درجة بكالوريوس في الطب من جامعة دمشق، وهو من اعداد د. عتاب خليل خلايلة. يقع الكتاب في ٦٤ صفحة، وطبع في مكتب اليازجي بدمشق ويبحث موضوعه في الانتانات البولية والعوامل المهيئة لها والالتهابات وسبيل معالجتها. ومع أن لغة البحث هي العربية الا انه وضع فيه المقابل الانجليزي لبعض أسماء الامراض والالتهابات زيادة في التحديد.

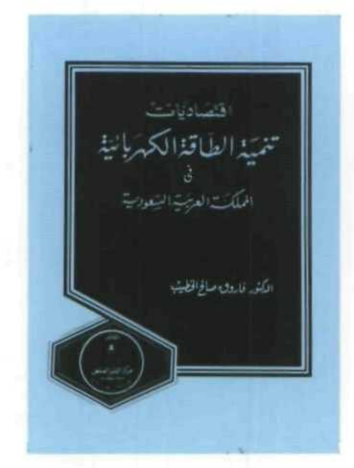


• «المدخل الى لغة الفورتران» تأليف د. سالم احمد سحاب ود. محمد يحيى عبدالرحمن، ونشر مركز النشر العلمي، بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة. يقع الكتاب في ٢٠٧ صفحات، ويدور موضوعه حول لغة «الفورتران — Fortran» واستعمالاتها من قبل طلاب الكليات العلمية وخاصة في مجال دراسة البرمجة على الحاسب الآلي وامكان

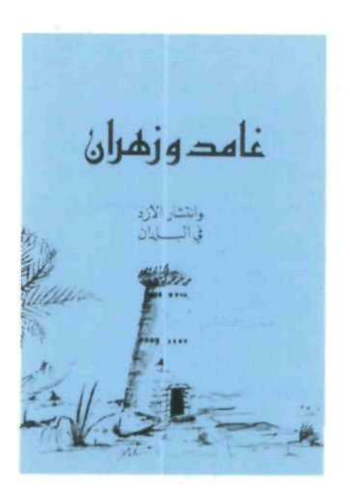
تطبيقها في شتى العلوم.



* «رجع الصدى» ديوان شعر شعبي للشاعر ماجد مشخص العبداني ويقع في ٢٠٤ صفحات. وهو يحتوي على أربعة أبواب هي: المناسبات، الغزليات، الوطنيات والاجتماعيات، المراسلات. وفي الباب الأخير عدد من القصائد لاصدقاء الشاعر اسندوها اليه أو ردوا بها على قصائد كان هو قد أسندها اليهم.



* «اقتصاديات تنمية الطاقة الكهربائية في المملكة العربية السعودية» تأليف د. فاروق صالح الخطيب، واصدار مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة. يقع الكتاب في ٢٠٤ صفحات مقسمة الى اربعة فصول هي: اقتصاديات الطاقة الكهربائية، استراتيجيات تنمية الطاقة الكهربائية في المملكة، نموذج اقتصادي لدراسة السلوك الاستثماري لمنتج الكهرباء الذي يعمل تحت ظروف التعريفة، والفصل الرابع خاص بالتوصيات.

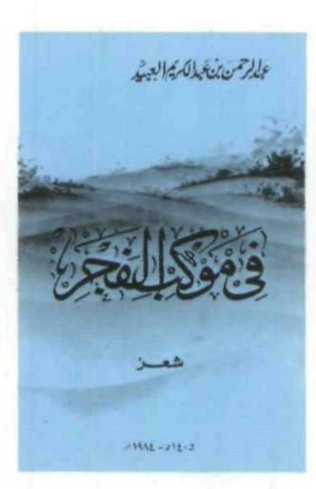


* «غامد وزهران وانتشار الازد في البلدان» للأستاذ ابراهيم بن احمد الحسيل. يقع الكتاب في نحو ٥٠٠ صفحة، وقد جمع المؤلف مادته من مراجع عديدة ذكرها في آخر الكتاب. ويهدف الكاتب في ذلك الى توفير المعلومات لهواة الآثار والتاريخ والقصص. والكتاب من تصميم وتنفيذ وطباعة شركة دار العلم للطباعة والنشر في جدة.

* «أدباء من الخليج العربي» للاستاذ عبدالله أحمد الشباط، واصدار الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع في الخبر. يقع الكتاب في نحو ٣٥٠ صفحة تضم ترجمات قصيرة لثلاثة وسبعين من الأدباء والشعراء، رجالا ونساء، من اقطار الخليج العربي. وقد أورد المؤلف نبذة قصيرة عن حياة كل منهم، وبعضا من انتاجه الأدبي او الشعري.



* صدرت للاستاذ عبدالرحمن بن عبدالكريم العبيد ثلاثة كتب احدها ضمن سلسلة «هذه بلادنا» وعنوانه «الجبيل: ماضيها وحاضرها» وقد صدر عن ادارة الشؤون الثقافية بالرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض. والجبيل هي مسقط رأس المؤلف. ويقع الكتاب في ١٥٥ صفحة وفيه بعض الصور والخرائط والرسومات.

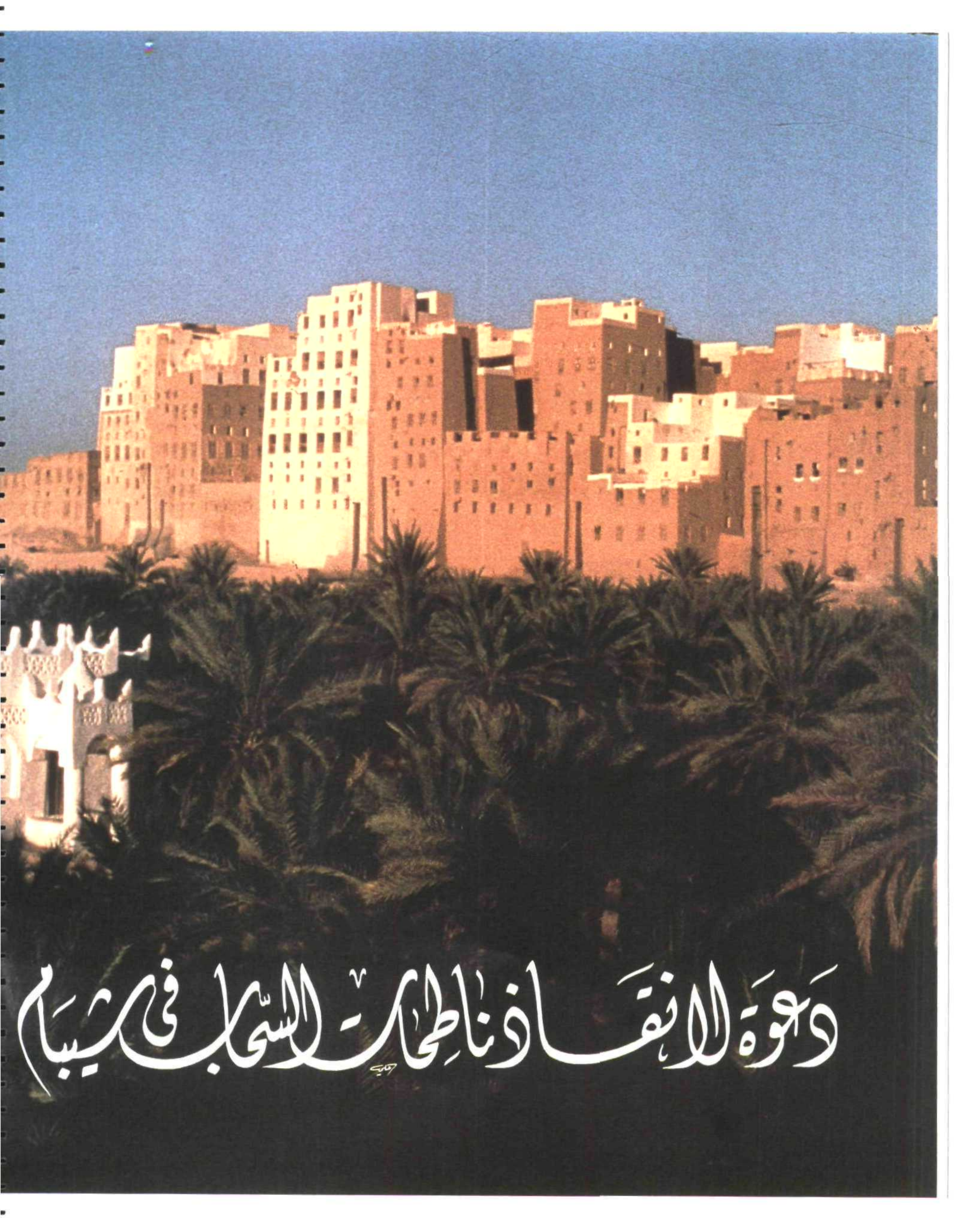


والكتاب الثاني بعنوان «في موكب الفجر» وهو ديوان شعر من ١٣٩ صفحة تضم ٤٥ قصيدة مبوبة في ثمانية ابواب هي: خواطر، مع الزمن، اخوانيات، الوصف، المجتمع، خليجيات، اسلاميات، ومناسبات دولية.

اما الكتاب الثالث فهو بعنوان «اصول



المنهج الاسلامي» ويقع في ٣٢٦ صفحة مقسمة الى ٥٢ بابا يبحث كل منها في موضوع مستقل من المواضيع الدينية الاسلامية والاجتماعية والاخلاقية. وقد وضع المؤلف في نهاية الكتاب معجما للمصطلحات الفقهية التي وردت في الكتاب، رتبها على حروف المعجم. وهذا الكتاب والذي قبله طبعا في مطابع الفرزدق التجارية بالرياض □



دعوة لإنقاذ ناطحات السحاب في شبام

تقوم شيبام على هضبة صخرية تقف شامخة وسط واد ينحدر حولها بعمق ٧٢٥ مترا. وتبدو، من الجو، قلعة محصنة على شكل معين منحرف طول ضلعه من الشمال الى الجنوب ٢٥٠ مترا، ومن الشرق الى الغرب ٣٨٠ مترا. وتشكل واجهات بيوتها المتجاورة جدارا يرتفع بين ٢٠ و ٢٥ مترا. وهي المدينة الوحيدة التي تخلو بيوتها من الحدائق في تلك الناحية، اذ هي عبارة عن مجموعة متراصة من المباني المرتفعة.

المسافرون، الذين زاروا تلك المنطقة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ذهلوا عندما شاهدوا هذه العمارات التي ترتفع الى خمسة أو ستة أدوار. وربما تعجبوا من سبب بناء هذه المدينة على شكل قلعة حصينة. والواقع هو أن شيبام تقع على الحدود بين سلطنتي القعيطية والكثيرية، فكان أن أقام سكانها منازلهم على هيئة عمارات عالية لتكون لهم كقلاع يتحصنون بها اذا ما حدث حادث. اضافة الى ذلك أن الارتقاء في البنيان ذو مغزى اقتصادي ودليل على المركز السياسي. فخلال القرن السابع عشر كان حوالي ربع سكان تلك المنطقة يعملون خارجها، بل خارج اليمن وربما خارج الجزيرة العربية. حيث كانوا يهاجرون الى جنوب شرقي آسيا وشرقي افريقيا وبلغوا في تلك الاقطار مراكز مرموقة، وخاصة في عالم التجارة والمال. ولما بدأ بعض هؤلاء التجار أو ابناؤهم واحفادهم بالعودة الى شيبام اخذوا باقامة المباني الشاهقة. وهي من ناحية تظهر مدى ثرائهم، ومن ناحية أخرى تهدف الى توفير في مساحة الارض التي اخذت قيمتها ترتفع بشكل غير معقول.



في المقدمة جانب من جامع «هارون الرشيد» في مدينة شيبام، وفي المؤخرة بعض المباني المرتفعة.

تاريخ شيبام الى ما قبل الاسلام. وتذكر بعض النصوص القديمة ان الحميريين قد خربوها في القرن الرابع الميلادي وانه لم يبق منها شيء بعد ذلك. ويذكر أن بناء «مسجد الجمعة» وكذلك القلعة يعود الى ايام الخليفة العباسي هارون الرشيد. وقد ورد ذكر شيبام وتريم في معجم البلدان لدى الحديث عن حضرموت فقال انها: «... ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالاحقاف. وبها قبر هود عليه السلام وبها بئر برهوت.. ولها مدينتان يقال لاحداهما تريم وللأخرى شبام. وعندها قلاع وقرى...»

ويتحدث معجم البلدان عن دخول أهلها في الاسلام فيقول: «ان رسول الله، ﷺ، قد راسل أهلها فيمن راسل فدخلوا في طاعته. وقدم عليه الاشعث بن قيس في بضعة عشر راكبا مسلما، فأكرمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما اراد الانصراف سأل رسول الله، ﷺ، ان يولي عليهم رجلا منهم، فولى عليهم زياد بن لبيد البياضي الانصاري وضم اليه كنده...»

ويذكر المؤرخون أن فيضانا حصل في تلك الناحية عام ١٥٢٤م فدمر نصفها وأهلك من سكانها نحو خمسة عشر الفا. ثم أخذت تعود شيئا فشيئا. أما المباني القائمة حاليا فتعود الى القرن الميلادي الماضي واوائل القرن الحالي، عندما أخذ التجار من ابنائها المغتربين في جنوب شرقي آسيا وشرقي افريقيا يعودون اليها. وحاليا يبلغ عدد سكانها القاطنين داخل الاسوار نحو ثمانية آلاف نسمة، بينما يبلغ عدد القاطنين في

يقال ، في اللغة ، تداعت المباني والجدران ، أي تصدعت وبليت من غير أن تسقط . ويقال تداعى الناس . أي دعا بعضهم بعضاً لأمر ما . وفي تداعي المباني زوالها واندثارها وفي تداعي الناس واستجابتهم لانقاذ تلك المباني حماية لها وابقاء عليها .

في أواخر عام ١٩٨٤، وجهت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» دعوة عالمية للدول والأفراد من أجل انقاذ تراث وطني مشرف على الاندثار. كان ذلك الكتز الأثري هو ما يمكن أن يسمى بناطحات السحاب في مدينة «شبام» التاريخية الواقعة في وادي حضرموت باليمن الجنوبية. وكانت منظمة اليونسكو قد عهدت، قبل ذلك بعامين، الى لجنة من الخبراء لدراسة حال هذه الناطحات المبنية بالطابوق المصنوع من الطين وضمتها، مع وادي حضرموت، الى قائمة التراث العالمي الذي تسعى اليونسكو الى المحافظة عليه وحمايته. ثم قامت المنظمة، في مطلع عام ١٩٧٦، بحملة عالمية لجمع ٣٧٥ مليون ريال سعودي (مائة مليون دولار) لانقاذ هذا المجمع الفريد من المباني القديمة الشاهقة وما حولها من الاسوار والابراج والبوابات، وكذلك مباني مدينة «تريم» التي تبعد نحو ٤٨ كيلومترا الى الشرق من شبام.

ويكتب خبير الآثار «جين فرانكو بريتن»، مدير البعثة الفرنسية للآثار في اليمن الجنوبية منذ عام ١٩٧٨، وعضو اللجنة الدولية لانقاذ آثار شبام، عن تلك المنطقة ومهمة المنظمة، فيقول: «لا يسعني غير تأييد جهود المنظمة الدولية، فقد زرت هذه المناطق الأثرية يوم قدومي اليها، قبل بضع سنوات، ثم شاهدتها مؤخرا، فرأيت مدى تأثير الزمن والاهمال على هذه الكنوز المعمارية، وقد رجعت اليها مرة أخرى ولا يزال الفارق عالقا في ذاكرتي».

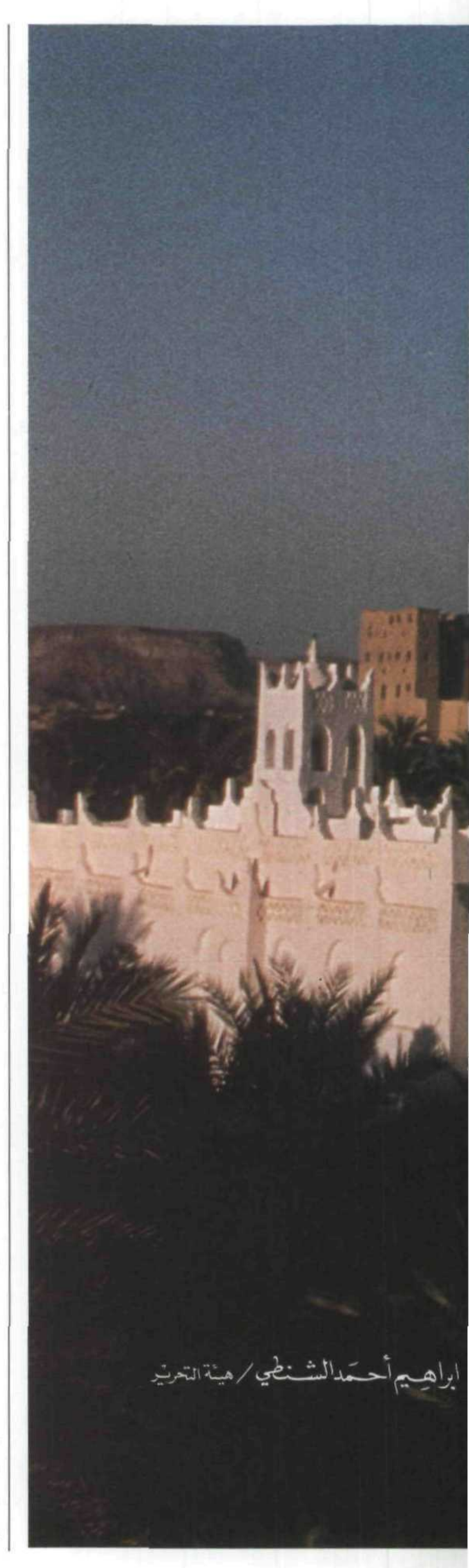
يقع وادي حضرموت على مسافة ساعة بالطائرة من عدن يشاهد المرء خلالها، من تحته، تلالا ذات قمم منبسطة، تربتها بنية اللون مائلة الى الحمرة. وعلى جوانب هذه القمم المنبسطة أودية تشكل قيعانها طرقا للقوافل لا تتغير، يعبرها الناس بابلهم ودوابهم وهم في أسفارهم بين المدن والمقاطعات. ويتوقع المرء أن يشاهد الاخدود الذي يظهر فجأة من تحته، حيث ينحدر جانباه بعمق يتراوح بين ٧٣٠ و١٠٠٠ متر. كما يشاهد، اثناء تحليقه فوق تلك البقاع، بساتين النخيل محاطة بحقول الذرة والبرسيم الأخضر الغض.

وعندما تصل الطائرة الى مدينة «سيئون» حاضرة الوادي، تهبط في مطارها الجديد المبني بالطابوق المصنوع من الطين، وذي السقوف المزدانة بالجص الأخضر والوردي. وهناك يجد الزائر ان سيئون ترقد عند أقدام الجبل بين أشجار النخيل، وفي اعلا نقطة منها يقوم قصر السلطان السابق، الذي يشكل أحد معالم المعمار الحضرمي الأصيل.

يتخذ هذا القصر حاليا، وبعد أن تم ترميمه مؤخرا، بمثابة متحف أثري تعرض فيه الالواح والشرائح المنقوشة، والاشكال والتماثيل المصنوعة من البرونز، وقطع الفخار التي عثر عليها مؤخرا في منطقتي «ريبون» و«باقطفة». فمنذ عام ١٩٧٦ والمركز اليمني للثقافة والبحث عن الآثار يقوم بجهود مضنية لحفظ آثار ذلك الوادي وصيانتها.

ومع أن ذلك القصر يطل، من علٍ، على مركز المدينة التجاري، الا أن هناك عدداً من المآذن البيض يرتفع بين البيوت السكنية من دونها، الامر الذي يعيد الى الاذهان أهمية مدينة سيئون التي كانت، ذات يوم، مركزا ثقافيا اسلاميا. وحول المدينة القديمة تنتشر بساتين النخيل الواسعة تتخللها المنازل البيض الجميلة.

واذا ما اقلعت الطائرة من مطار سيئون باتجاه مدينة شبام فانها تعبر فوق قرى الغراف والقراو والحزم، وبعدها تظهر للمسافرين، بطريق الجو، مبان رمادية اللون ذات أسطح بيض ترتفع عالية بين بساتين النخيل التي تحيط بها من كل جانب. تلك هي شبام، المدينة التاريخية التي يسميها البعض: «نيويورك حضرموت».

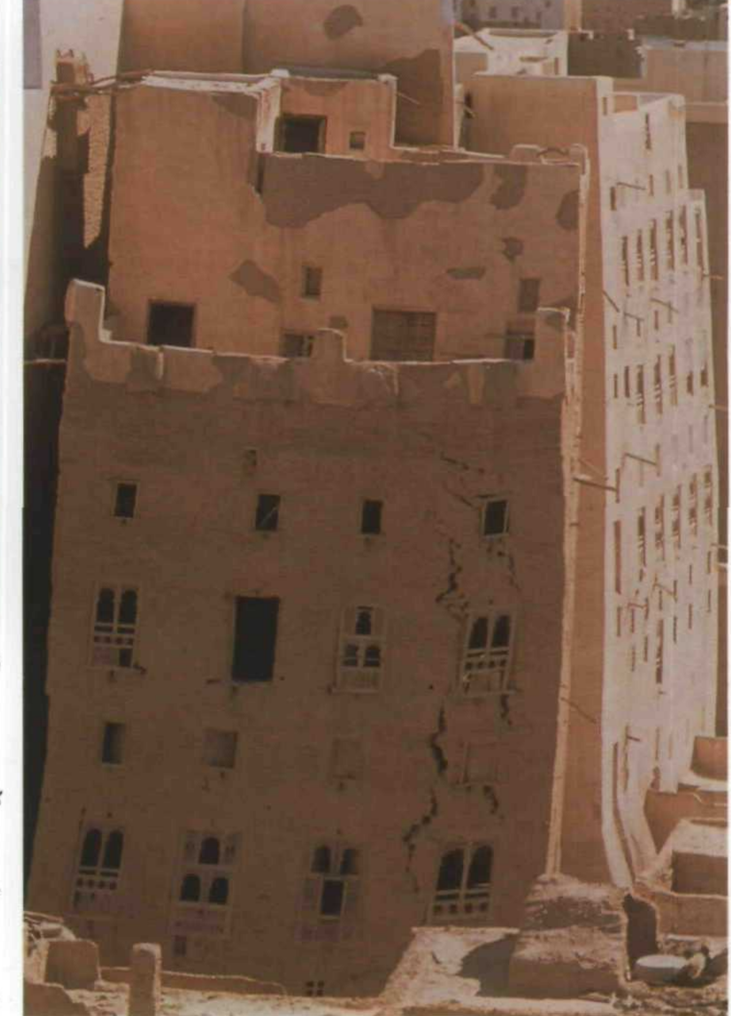


ابراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير

٣

٢





٤

١ — تقوم مدينة شبام على هضبة مرتفعة في وسط واد، وتبدو عماراتها الشاهقة كناطحات السحاب في مدينة حديثة، بينما تشكل واجهاتها الخارجية سورا للمدينة يرتفع بين ٢٠ و ٢٥ مترا.

٢ — معمل للطابوق المصنوع من الطين، وقد بُسط ما تم تصنيعه ليجف تحت الشمس. ويبدو في مؤخرة الصورة قصر السلطان السابق في سيئون — عاصمة حضرموت.

٣ — تفتقر المباني القديمة لأعمال الصيانة التي أصبحت باهظة التكاليف لدرجة يعجز عنها أصحاب المباني فيتركونها عرضة للانهيار.

٤ — لا تزال عملية البناء التقليدية، حيث المواد متوفرة محليا، هي السائدة حتى اليوم.

االضاحية الجديدة عشرة آلاف نسمة. وتسمى هذه الضاحية «الساحل» وتقع على الضفة الجنوبية للوادي.

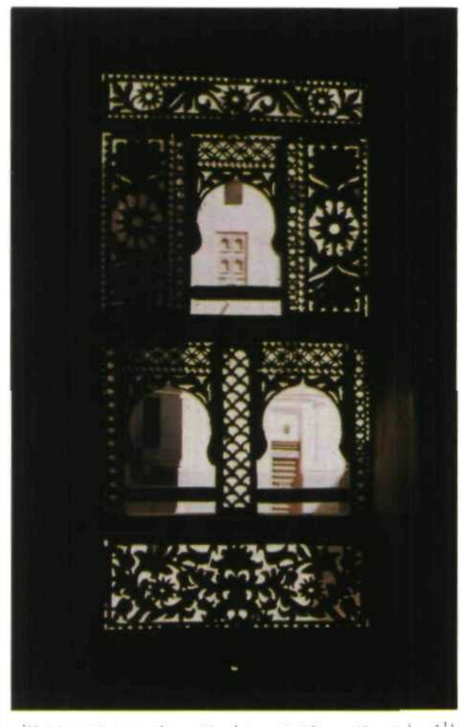
ويشكل الحي القديم من شبيام متاهة للزائر، وذلك بسبب الأزقة الضيقة المتعرجة، التي تشبه الخنادق، لما يحيط بها من مبان مرتفعة بنية اللون، ذات مزاريب طينية، يصب ماء المطر منها على أرض الزقاق الضيق الذي ينخفض عن مواقع المزاريب في أسطح المباني بنحو يتراوح بين ٢٠ و٣٠ مترا. اما في الضاحية الغربية من المدينة حيث المباني الجميلة، فيشاهد المرء الأبواب والنوافذ الخشبية ذات النقوش الرائعة المحفورة في الخشب الصلب، كما يشاهد المخازن التجارية التي تعرض أحدث الأجهزة الحديثة المستوردة.

ومع ذلك، لا يزال أسلوب البناء القديم متبعا حتى اليوم. يحفر عمال البناء أسس المبنى حتى يصلون الى ارض صلبة، بعدها يضعون في أرض الخندق، الذي حفروه، طبقة من روث البهائم وفوقها طبقة من الملح. ثم يحددون جانبي الجدار بالواح من الخشب ويأخذون برص الحجارة بينها مستخدمين الكلس في تثبيتها حتى يصبح الجدار في مستوى الطريق. وبعد ذلك يبدأون باستعمال الطوب الطيني، الذي سبق تجفيفه في الشمس، حتى يصلوا الى الارتفاع الذي يريدون، وربما الى الدور السادس. وفي العادة يكون عرض الجدار عند الاساس واسعا ثم يأخذ بالضيق، تدريجيا، من الخارج، كلما ارتفع البناء حتى السطح الأخير.

وعندما يقيمون السقف يجعلونه افقيا مستويا ثم يبنون حوله سورا قليل الارتفاع ثم يشكلون فوق السقف مسطحات يصبون فيها طينا متجانسا يكون عبارة عن مزيج من رماد الحطب والكلس والرمل، يخلطونها بنسب محددة، وذلك لمنع تسرب ماء المطر من السقف. ويقول أحد البنائين المخضرمين العاملين في تلك المدينة بأن هذا المزيج يعمر نحو خمسين سنة اذا ما تم مزجه وبسطه بطريقة صحيحة. اما عن تكاليف انجاز مثل هذا العمل فيقدر بحوالي ١٤٢ ريالا سعوديا للمتر المربع. وهناك أيضا أسلوب آخر لعمل هذه المسطحات باستعمال الطين والقش ثم طلاء السطح، بعد أن يجف، بالكلس، ويكلف ٦٣ ريالا للمتر المربع، لكنه لا يعمر أكثر من ١٥ سنة.

ويحدثنا خبير الآثار، «جين فرانكو بريتن» عن الضاحية الغربية من المدينة عقب زيارته لها حيث اطلع على منزل مكون من خمسة طوابق، ويسمونه بالحصن، فيقول: كان الطابق الأول يشتمل على عدد من الحجرات تستخدم كمخازن لمختلف انواع الحبوب والادوات، وفيه جانب لمبيت الماشية. وكان الطابق الثاني خاصا بالنساء، والثالث عبارة عن مجلس لصاحب المنزل، الذي يعود تاريخ بنائه الى نحو مائة سنة خلت. اما افضل الغرف فتلك الكائنة في الطابق الرابع. في احدى غرفه يوجد عمودان من الخشب القوي وخزانة للملابس ذات ابواب خشبية محفورة، ونافذة ذات مشربية جميلة الصنع. وهناك سلم داخلي يؤدي الى ثلاثة أسطح علوية يمكن للجالس عليها أن يشاهد جميع القرى من حوله. واقربها قرية «القابوصة» التي عثر فيها عام ١٩٤٠ على مجسم من البرونز على شكل رأس أسد، ويوجد هذا الرأس الآن في متحف فتزوليام بمدينة كامبردج في بريطانيا.

ويتابع الخبير الفرنسي حديثه عن جولته في حضرموت فيقول: وبينما كنا في طريقنا من تريم، التي تقع على مسافة ٤٨ كيلومترا الى الشرق من شبيام، مررنا بحقول القمح وبساتين النخيل، التي تضم حوالي ٧٠٠٠٠٠ شجرة من النخيل المختلف الأنواع، وبمراع



المشربيات ذات النقوش الجميلة، التي تزدان بها نوافذ المباني، توفر النسيم اللطيف للمقيمين فيها، ولكنها أيضا تحتاج لصيانة دورية.

واسعة للجمال والأغنام التي تشكل نموذجا تقليديا للحياة الزراعية الرعوية في ذلك الوادي. كذلك شاهدنا الأسلوب الزراعي القديم بجانب الحديث المتطور، حيث كانت هناك مجموعات من النساء العاملات في حقول البرسيم، وعلى مسافة منهن كانت احدث الآلات الزراعية تهدر في الحقول وكأنها سفينة تمخر عباب البحر.

ومن المعدات الحديثة ايضا شاهدنا بعض مضخات المياه التي قيل لنا أنه يوجد منها في تلك الناحية حوالي ٢٥٠٠ مضخة تشفط المياه من أعماق تتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ مترا. فالمطر هناك قليل لا يتجاوز ٦٠ مليمترا في السنة. وهذه كمية قليلة لا تكفي لأي محصول زراعي.

واذا ما وصل الزائر الى مدينة تريم يجد أنها تختفي خلف أسوار ذات ابواب وابراج. ولا يكاد الغريب يدخلها حتى يسارع الصبيان اليه عارضين أن يرشدوه الى القصور والمساجد. ولكن المرء سرعان ما يجد أن العدد كبير جدا، وبالكاد يستطيع زيارة عشرة أو عشرين منها، ففي المدينة نحوا من ٣٦٠ مسجدا، أكبرها مسجد «سرجيس» الذي يعود تاريخ انشائه الى القرن السابع الميلادي. وهناك أيضا مسجد «المحضار» ذو المنارة التي ترتفع نحو ٤٦ مترا، وتعتبر اعلى منارة في اليمن.

تقوم معظم المنازل الكبيرة في مدينة تريم على هيئة عمارات مربعة الشكل ذات نوافذ طولية متسقة في صفوف متوازية. وفي هذه العمارات الشاهقة يشاهد المرء علامات الثراء على أصحابها الذين كانوا يعملون في التجارة الدولية في الايام الغابرة، فالأبواب من سنغافورة والأبراج من الهند، والنقوش الجميلة تزين الابواب المصنوعة من الخشب الصلب. وفي تريم مكتبة ضخمة للاوقاف، وفيها يختزن مؤسسو المدينة مذكراتهم، ويقال ان فيها بين ٣٠٠ و٤٠٠ مخطوطة اسلامية فريدة في نوعها.

وقديما اشتهرت تريم بالموسيقيين، والبنائين من أبنائها الذين اقاموا العديد من المساجد والمدارس والقصور والمنازل، لكن الحال اليوم قد تغير بانخفاض الدخل العائد عليها من ابنائها في جنوب شرقي آسيا وشرقي افريقيا، كما أن الركود الاقتصادي العالمي في الوقت الحاضر قد أثر عليها وعلى البنائين والمزارعين من أبنائها. ويلاحظ هذا بنظرة عامة في مختلف المرافق، وخاصة في ناطحات السحاب في مدينة شبيام حيث لا يستطيع اصحابها القيام بصيانتها. وهناك ٣٠ عمارة من ٥٠٠ تكاد تكون خربة، كما أن مناطق عديدة من اسوار المدينة قد تهدم.

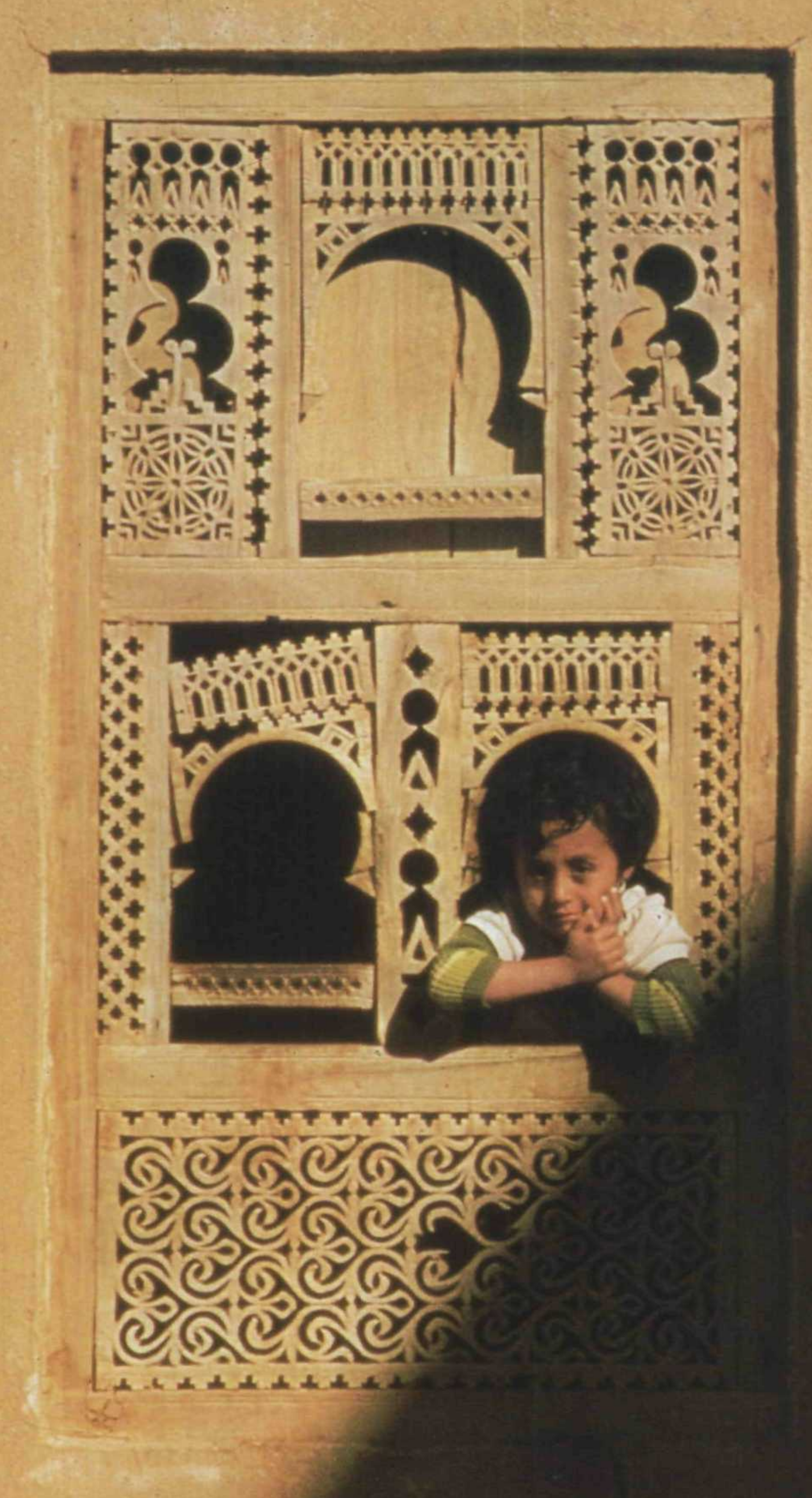
ومما زاد في تلف الاسوار، بالاضافة الى قلة الصيانة، أسلوب الصرف الضعيف خلف الاسوار. ففي عامي ١٩٧٦ و١٩٨٢ كان هناك صدع في الخزان الواقع على مسافة خمسة كيلومترات الى الغرب من شبيام، مما جعل مياهه تتدفق الى المدينة، الأمر الذي سبب لمبانيها الخارجية الكثير من التلف.

والحال في تريم كالحال في شبيام، لم تمتد يد الصيانة للعديد من البيوت خلال السنوات العشر الأخيرة، نظرا لعدم قدرة مالكيها على ذلك وللارتفاع الكبير في أسعار مواد البناء وتكاليف الصيانة.

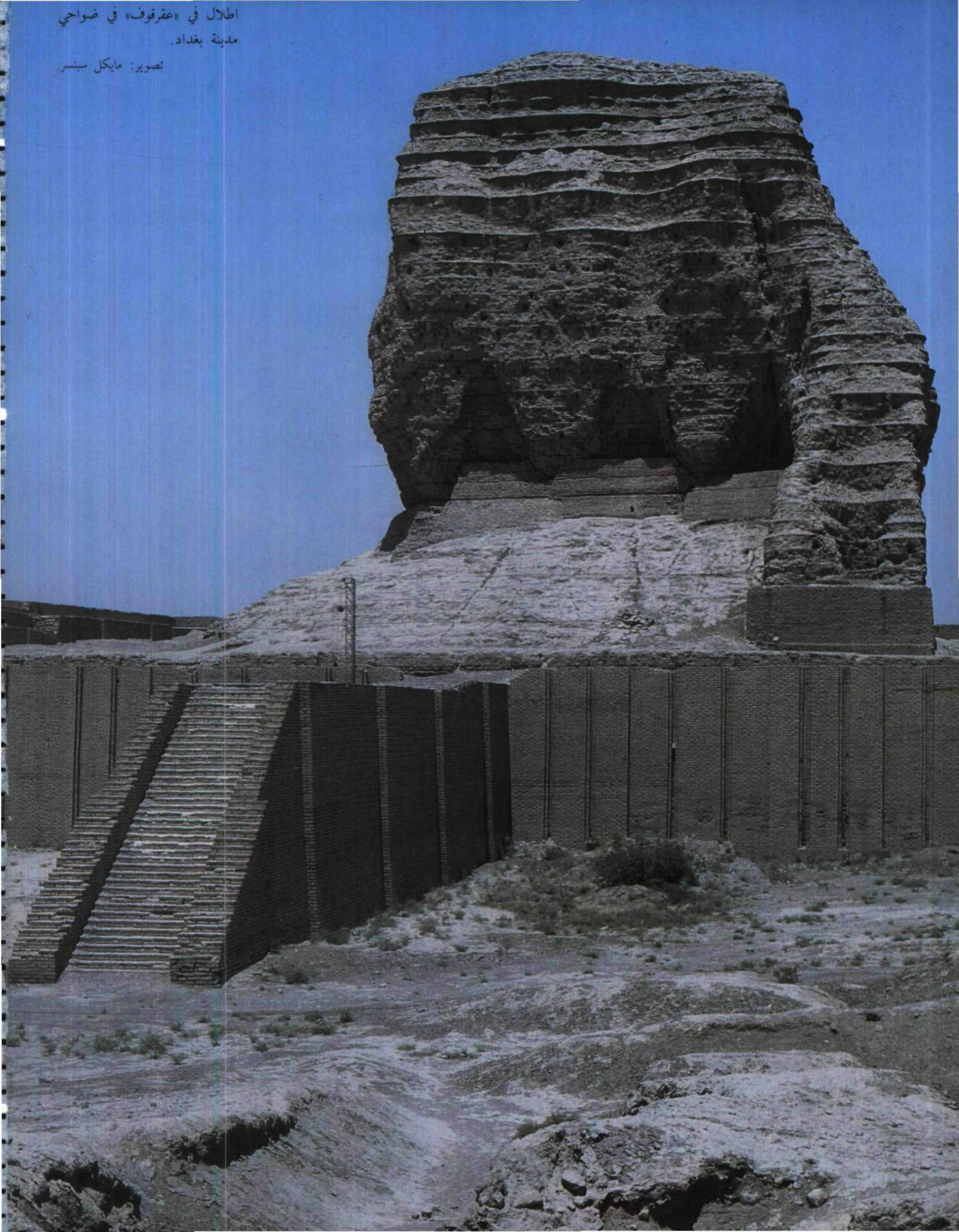
المباني، من الجو، جميلة تأخذ بالنفس كناطحات السحاب في المدن الحديثة، لكنها عن قرب تختلف اختلافا شاسعا.. انها فريدة في نوعها، ولذا لا بد من انقاذها والمحافظة عليها □

بتصرف عن مجلة ارامكو وورلد

تصوير: جين بريتون



مشربية ذات نقوش جميلة



اطلال في «عقرقوف» في ضواحي
مدينة بغداد.
تصوير: مايكل سبنسر.